

بريطانيا النازية

البريد مجى طـنى

تحرير النيل

تحرير النيل ، من المنبع إلى المصب ، من ربيعة الاستعمار
البريطانى - هذا هو شعار الوطنية ، للنازلى على ضفاف النهر
المبارك ، منذ فجر النهضة الاستقلالية ، لا ييغون عنه حولا ،
ولا يحدون أى فداء فى سبيله عزيزا .

أنطبع هذا الشعار المقدس ، بحروف من نور ، أو حروف من
نار ، على صفحات قلوب أبناء الوادى ، من ربع قرن أو يزيد ،
فلا يحل ، فى شريعة الوطنية الصادقة ، أن ينكض المجاهدون على
أعقابهم ، ولا يجوز فى عقل عاقل ، ولو كان من غلاة المستعمرين ،
أن يتقهقر المؤمنون بحقهم ، ولا يتقدمون .

فاذا ترحل كابوس الاحتلال البريطانى عن صدر شمال الوادى ،
وظل جاثما على صدر جنوبه ، فتلك حرية زائفة ، واستقلال خيالى ،
للأخوين الشقيقتين ، فالمتحكم فى منابع النيل ، متحكم فى مصائر مصر .
ولئن تطهرت أرض المدن المصرية ، من كل أثر لأقدام
الغاصب ، ثم مكن للغاصبين ، فى منطقة القناة ، فذاك هو الجلاء .
المزيف ، فما اقتطعت تلك المنطقة من جسم الدولة المصرية ، ولا
انتزعت من بين جنبها الروح الوطنية ، وإنما هى بضعة من جسم

الأمة المصرية ، فإذا شكت من آثار الاحتلال ، تداعى لها سائر المصريين بالشكوى والألم .

ولئن بيت المستعمرون الكيد لاستقلال مصر ، فأضربوا أن يخذعوها عن الحق والحقيقة ، فيسبغوا عليها أثواب الحماية ضافية ، تحت أستار المحالفة ، أو في ظلال الدفاع المشترك ، فما كان للثؤمنين بالحرية ، أن يؤمنوا بالحماية ، ويكفروا بالاستقلال .

ومهما افتن ذئاب الاستعمار في بئر السودان عن جسم مصر ، بدعوى الاستفتاء ، وتحت ستار الغيرة على حرية الشعوب ، فها هم بقادرين على خداع الأخوين ، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل ، وكيف السبيل الى الخداع ، وتاريخ الامبراطورية البريطانية حافل بأخزى صفحات الاستعباد وأدماها ، فكيف يؤمن الناس لعهودهم ووعودهم ، وقد أغرقوا وثيقة الأطلسي في أعماق أعماق المحيط ، وجعلوا الحريات الأربع ، أو الفقاقيع الأربع ، تتبخر في الهواء . وكيف يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ولم تخسف أرض الوادي ، ولم يجف النيل .

واليوم أتناول القلم ، وسأظل أتناوله مادام في الصدر نفس يتردد حتى يؤمن بنو وطني ، أن الانجليز هم خصوم حريتنا ، وأن ضغطهم السياسي والاقتصادي هما علة انحطاط مستوى المصريين وخواصهم السودانيين ، وأن كفاحنا السياسي ينبغي أن يوجه الى محركات الخيوط ،

لا إلى الدمى والشخوص ، فلا نلقى بالنار إلى الآخرين ، إلا بقدر ما يكونون أدوات مسخرة للأولين .

في الحرب العالمية الأولى ساعد المصريون الانجليز حتى كمل النصر هاماتهم ، ثم جازوهم عن تضحياتهم ، بتضحية استقلالهم ، وفي الحرب العالمية الثانية ، أمدوهم بالعون حتى عقد النصر بلوائهم . ثم تراءى ، بعد النصر ، يحاولون أن يخدعوهم عن حقهم المقدس ، ولئن صح أن التاريخ يعيد نفسه ، فمحال أن يلدغ الوطنيون من جحر الاستعمار مرتين . إذا خدعنا الاستعمار البريطاني أول مرة كان هو الملولم ، فإذا خدعنا ثانياً مرة كنا نحن الملولمين . وهنا تحضرنا كلمة أبراهام لنكولن زعيم حرب التحرير في أمريكا : « إنك تستطيع أن تخدع بعض الناس ، بعض الوقت ، وكل الناس بعض الوقت ، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس ، كل الوقت » .

إن دينا في عنقنا أن نحيط وطننا بسور من القلوب العامرة بالايمان الوطنى ، ولئن أكله الذئب الاستعماري ونحن عصابة إنا إذن لخاسرون .

قام تشرشل خطيباً ، وهو على رأس الوزارة البريطانية ، إبان الحرب العالمية الثانية ، فملا فمه بأنه ما جاء الوزير الأول ليشراف على تصفية الامبراطورية البريطانية . وتسلم العمال مقاليد الحكم ، فقال خصومهم من المحافظين : يخطئ من يظن أن العمال أقبلوا يصفون

الامبراطورية . ولقد ضرب اتلى على نغمة تشرشل إذ زعم باطلا أن على بريطانيا التزامات فى الشرق الأوسط ، وكلمة التزامات ، فى قاموس السياسة الاستعمارية ، لا تعنى إلا الاستعمار ، فى أقبح صورته ، وأسوأ معانيه .

ولعلنا لا نتجنى على الحقيقة إذا نحن نادينا بأن الروح الاستعمارية التى تتسلط على تشرشل وايدن . هى هى الروح الاستعمارية التى تتسلط على اتلى ويفن ، وأن الجميع قطع متخلفة من القرن التاسع عشر ، يوم كان ولیم بت يصارع مارد كورسيكا ، إذ يحول بين نابليون وبين اتخاذ مصر نقطة ارتكاز للوثبة على الهند ، وهى أئمن جوهرة فى التاج البريطانى ، وانتزاعها من الامبراطورية البريطانية هو بمثابة انتزاع الروح التى بين جنبها .

واقدر كان طريق الهند مثار صراع طويل بين الانجليز والروس مخافة أن ينحدر الدب الروسى من البواغيز إلى البحر الأبيض المتوسط فيشتبك بالأسد البريطانى فى حوضه ويهدد طريق الهند .

وأشفق الانجليز أن يكون إنشاء قناة السويس مهددا لطريق الهند فوقفوا عقبة فى وجه إنشائها حيناً ، فلما أفلت الأمر من أيديهم ، وشقت القناة رغم أنوفهم ، احتال دزرائيل للسيطرة عليها بشراء أسهمها ، ثم ما لبثت السياسة الاستعمارية أن ترقى فى العدوان ففرضت الاحتلال على وادى النيل فى عام ١٨٨٢ المشثوم .

واليوم يشهد العالم الصراع بين الدب الروسى الجريح والأسد
البريطانى الهزيل والشرق الأوسط مسرح الطمع بل لقد انقسم العالم
إلى معسكرين ، المعسكر السكسونى ، والمعسكر السوفيتى ، ابتغاء
الاستئثار ببتروال الشرق ، وموارد أطم الشرق .

وموقع مصر ومصلحتها يحددان مركزها ، فليس من الحكمة
السياسية فى شىء أن تنحاز إلى جانب أحد المعسكرين وإلا أصبحت
أرضها وبحرها وسماؤها ميداناً للحرب العالمية الثالثة التى نخيم شبحها
فى أفق العالم من جديد .

نعم إن الحكمة السياسية تملى على مصر أن تقف موقف الحياد
الدقيق من الفريقين المتنازعين ، وأن تستغل خلافاتهم لصالح القضية
الوطنية ، فأما أن تلقى بجهودها فى إحدى كفتى الميزان للترجيح ،
فذلك ما يجعل مصيرها فى ميزان القدر ، فوق أن التجارب قد ألفت
علينا أقسى الدروس بأننا نجزى على المعونة بالعقوق ونكران الجميل
ودوس الاستقلال تحت الأقدام .

وحقيقة نرجو أن تتنبه الأذهان إليها ، تلك هى أن المعسكر
السكسونى يعمل جاهداً لتسخير الجامعة العربية لمناهضة روسيا بدعوى
صد تيار الشيوعية الجارف . وما يبتغى ذلك المعسكر المؤلف من
أمريكا وإنجلترا إلا الانفراد بخيرات الأمم العربية . وإذا وضعت
شعوب العرب جهودها فى إحدى كفتى الميزان اختل التوازن وهو

الغلمان لحریات الشعوب المغلوبة على أمرها .

إن كل مناهضة لحصوم الاستعمار البريطانى هو مد فى أجل ذلك
الاستعمار وهو اليوم يحتضر .

وإن صحافتنا التى تجمع من نفسها بوقاً لترديد نغمات الدعاية
السكسونية ، وهى لا تدرى ، لتلحق أكبر الأذى بقضية الاستقلال
والحرية ، فالمستعمرون فى الشرسواسية ، وفى اختلافهم رحمة بالعالم .
ولسنا نجاوز الحق والواقع إذا نادينا بأن المحافظين والعمال قد
صبروا فى قوالب استعمارية واحدة . فىرى العالم كالمحافظ أن تلك
الجزيرة الصخرية التى تضن على أهلها بالرزق فلا تكاد تستوعب
إلا عشرة ملايين ، على حين يزدهم فى جوانبها ستة وأربعون مليوناً ،
لا بد لها من بسط سلطانها على الأرض ، ولو دأست حرية الشعوب
تحت قدميها ، غير وانية ولا مترفقة ، ولو انتزعت القمة من
فم اليتيم والمسكين .

وإذا تكلم البريطانى عن التوازن الدولى ، وإذا خاض غمار
الحروب ، أو سخر العالم لتحارب له ، فلكى يبعد شبح الخطر عن
الامبراطورية البريطانية المتداعية من الناحيتين الحرية والاقتصادية ،
وإذن فلم يكن وندل ويلكى متجنياً حين أهاب بسمع العالم أن
الامبراطورية البريطانية هى مشار الحروب فى العالم .

على أن الإنجليز ينسون أو يتناسون أن للناس عقولا . وأن

القيم الأخلاقية هي في كل زمان ومكان . وأن المقاييس والموازن لا تتبدل بتبدل الأيدي التي تتداولها . وأن صيحات الانجليز التي ملأت أطباق الفضاء ، إبان الحرب العالمية الثانية ، ثورة في وجه الطغيان النازي ، مازالت تدوى في الآذان . وأن بسط السيادة على العالم إذا كان حراماً على الألمان ، فليس على الانجليز حلالاً .

ويتطور كل شيء في الدنيا إلا العقلية الاستعمارية لا تتطور . والدرس الدموي القاسي الذي ألقته الحرب على العالم ، لا يجد إلى تلك الرؤوس المتعفنة سبيلاً . فهي اليوم تحاول استرقاق الشعوب باسم الالتزامات ، كما كانت تسترقهم بالأمس تحت ستار الدعوى الكاذبة بنشر ألوية الحضارة في ربوعهم . ويشهد الله والهند ومصر أنها لا تنشر إلا جرائم الفقر والمرض والجهل .

لم يخجل أحد غلاة المستعمرين من الانجليز أن يقول في معرض الكلام عن الأسلوب الذي ينبغي أن يخضعوا به مستعمراتهم : « يجب أن لا ندع الثمرة تنضج ، لأنها إذا نضجت فلا تلبث أن تنفصل عن الشجرة لا محالة » . والنزعة الاجرامية التي تترجم عنها تلك العبارة المجرمة هي أنه يجب أن تتردى الشعوب التي يوقعها سوء الطالع بين براثن استعمارنا في هوة الفقر والمرض والجهل حتى لا تفات الفريسة من مخالبنا !

لقد ظل كابوس الاستعمار البريطاني جاثماً على صدر مصر نيفاً

وستين عاما . فمستوى المعيشة فيها لا يعادله في الانحطاط إلا مستوى المعيشة في الهند . والاحصاءات عن الفقر والمرض والجهل ، في البلدين مثيرة مفزعة حتى للضباط المتحجرة . فقد كان متوسط دخل الفرد في اليونان ، قبل الحرب ، تسعة أضعاف متوسط دخل الفرد في مصر . ونسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة لا تكاد تتجاوز ١٢ ٪ . والأمراض المتوطنة تفتك بهذا الشعب المسكين فتكا ذريعاً على ضرورة تدعو إلى النساؤل ، كيف بقي إلى اليوم على قيد الحياة فلم ينقرض ؟

فلا عجب إذا استمات الوطنيون في المطالبة بجلاء آخر جندي انجليزى عن وادى النيل ، فان لتلك الاستماتة دوافع روحية ومادية ، إذ يبتغون زحزحة الكابوس الجاثم على صدر استقلالهم القومى ، وغسل العار اللاصق بكرامتهم الوطنية ، وإزالة العقبة الكثود في طريق رخائم المادى .

وإذا كانت إنجلترا ، باعتراف مستر اتلى نفسه ، قد خرجت من الحرب وهى مثقلة بعوامل الفقر . وإذا كان المسئولون من الانجليز يصارحون بأنها لا تستطيع الوفاء بديونها ، وأن ليس لديها فى الخارج من الأرصدة ما تستطيع أن تواجه به مطالب المواد الغذائية ، والمواد الأولية ، فمن حق المصريين أن يخافوا أن تحاول الاثراء على حسابهم . ومن أقدم واجبات المرء ، نحو نفسه ووطنه ، أن يعمل جاهداً على إبعاد الطفيليات التى تعيش على امتصاص دمه .

تعمل السياسة الاستعمارية بكافة الوسائل على الحيلولة بيننا وبين التعامل مع غير الانجليز ، فتحكر أسواقنا ، وتستأثر بتجارتنا ، وتتحكم في مصايرنا المالية والاقتصادية ، فتضرب علينا الذلة المالية ، والمسكنة الاقتصادية .

كان الانجليز يقولون في الماضي : لقد أعطينا المصريين الماء والعدالة . واليوم نراهم يحاولون فصل السودان عن مصر ، أى يحاولون حرماننا من مصدر حياتنا . فأما مقياس العدالة عندهم ففي حرمان الشعوب من حقوقها في الحرية والحياة .

لئن كان المنتصرون يفكرون في تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ فليعلموا أنهم يلقون بذور حرب عالمية ثالثة . فلا فرق بين سياسة القفاز الحريرى ، والقبضة الحديدية . والحر لا يكون عبداً ، ولا يطمئن إلى العبودية بحال سواء أكانت على يد الألمانى أو الانجليزى أو الأمريكى أو الروسى أو كائن من كان .

ونحب أن نصارح الانجليز بأن مستر تشرشل حين أخذوا عليه وضع يده فى أيدى الروس والحرب إلى جانبهم قال قولته المشهورة : إنى أتحالف مع الشيطان ، فى سبيل القضاء على هتلر . فلا تثريب على المصريين ، مادام الانجليز يماطلون فى الجلاء عن وادى النيل أن يستنصروا بالأمريكيين والروسيين للاعتراف بمصر دولة على الحياد الدائم أسوة بسويسرا على أن يكون هذا الحياد مضموناً من جميع الدول التى لها مصالح فيها .

فأما اتخاذ نقط استراتيجية في الأراضي المصرية فيتعارض مع استقلال مصر وإن يرضى به مصرى تجرى في عروقه الدماء المصرية.

يقول الانجليز في بعض أمثالهم : « السياسة لعبة قدرة ، وكل لعبة يجب أن تلعب حسب قواعدها وأصولها » . وتعتنق السياسة الاستعمارية مذهب مكيا فيلى القائل بأن الغاية تبرر الوسائل . وتدين بمبدأ : فرق تسد ؛ بل لعل صاحب كتاب « الأمير » لو بعث اليوم من قبره لتتلهذ على بعض غلاة الاستعمار من الانجليز .

على أن السياسة البريطانية قد افتضحت لدى المصريين فلا خوف بعد اليوم أن يخذعوا بها .

ولا يداخلنا شك في أن موقف السياسة الاستعمارية قد أبرأ بعض أحزابنا من مرض المفاوضة وحملهم على أن يخرجوا بالمسألة المصرية من المضيق الاستعماري إلى رحاب الدولية .

وما من شك في أننا نستطيع أن نستثير الضمير العالمي إلى جانب وادي النيل إذا أحسننا الدعوة والدعاية وكشفنا عن مبلغ الارتباط بين حيدة قناة السويس والسلام العالمي .

على أنه ينبغي لنا أن لا نتعلق بالأوهام فنعتقد أن مجرد طرح دعوانا على المنظمات الدوائية يضمن لها الكسب لا محالة . فالعالم لم يبرأ بعد من حمى المطامع . والضمير العالمي لم يستيقظ بعد اليقظة

التامة . والأطماع الجامحة تطفئ على المصالح الحقيقية . وتبادل المصلحة يدفع السياسة إلى غير لائق بالحق والعدل . فلكي نواجه الحقائق ، وندرك الأمور على وجهها الصحيح ، ينبغي لنا أن نؤمن بأن عرض مسألة وادى النيل على الهيئات الدولية لا يعفينا من الكفاح بحال ، بل يجب أن نفهم أن ذلك العرض لا يعدو أن يكون مرحلة ، من مراحل الكفاح .

وحشية الاستعمار البريطانى

فى يوم الخميس ٢١ فبراير من عام ١٩٤٦ خرج الشعب المصرى الأعزل إلا من قوة الحق ، وقوة اليقين ، بجميع هيئاته وطبقاته ، فى مظاهرات سلمية بريئة . يهتف بالجلاء ، ووحدة وادى النيل ، ويعلن إرادته . فى وجه العالم بأسره ، بأن يعيش حراً . أو يموت كريماً .

على أن الحق الأعزل ، يخيف القوة المسلحة ، والمدين الماطل ، بهاب الدائن المتمسك بحقه . فلم يكن عجباً أن تطيش من الانجليز المستعمرين أحلامهم وسهامهم ، فيكون موقفهم من المصريين مدعاة للرناء والازدراء ، ويكون موقف المصريين ، من جلادهم ، مشار الأكبار والاعجاب .

اقتحمت سيارات المستعمرين المتوحشين ، صفوف الوطنيين الأحرار ، فاستشهدت طائفة من الأبطال الأبرار ، فلم يزدنا المستعمرون علماً بأن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وإنما زادوا نار الوطنية المصرية تأججاً واشتعالا .

وأمعن الذين تحجرت قلوبهم وضمايرهم فى الوحشية فسلطوا نيران مدافعهم الرشاشة تحصد صفوف العزل الأبرياء حصداً ، وأوغل غلاظ الأكباد الذين يحملون فى صدورهم حجارة لا قلوباً . فمزقوا صدور الهاتفين الأحرار برصاص بنادقهم . وما كان للاستعمار

البريطاني ، بتلك المآسى والمخازى ، والبربرية والهمجية ، أن يقتل
الحركة الوطنية ، أو يذبح الروح القومية ، أو يخمد جذوة المصرية ،
ولكنه يعمد إلى الانتحار ، ويحفر قبره بيده ، ولا يحفر القبور
للسهداء الخالدين .

لقد شهد العالم ، وسجل التاريخ ، أن المستعمرين لا تجد
الرحمة إلى قلوبهم سيلا . وإذا كان التاريخ يعيد نفسه ، فاليوم يفتح
الانجليز مع المصريين صفحة دامية من تلك الصفحات الحمراء القانية
التي احمرت عيون الناظرين اليها فى عام ١٩١٩ جزاء وفاقا لأولئك
الذين حموا تقهقرهم فخبوهم شر الهزيمة المنكرة . وتلك شيمة الاستعمار
البريطاني ، أسد على العزل من السلاح ، وفى الحروب نعامه ، وفى
الهيحاء ما جرب الاستعمار بخته ، ولكن فى الهزيمة كالغزال .

وفى اليوم الدامى المشهود ، يوم ٤ مارس من نفس العام ،
تكررت تلك المأساة الدامية على مسرح الاسكندرية ، فلطخ
الاستعمار البريطانى عاصمة القطر الثانية بالدماء ، ولطخ وجهه بالعار ،
وخطت الوطنية المصرية ، فى كتاب الجهاد القومى ، أجل الصفحات
وأبهاها ، وسود الاستعمار صفحات مجللة بالخزى والحنجل .

وفى الفترة بين ١٩١٩ و ١٩٤٦ لم تتغير نفسية الاستعمار البريطانى
وروحه ، فى خنق ضحاياه ، والاجهاز على حرياتهم ، ولم تتبدل أساليبه
ووسائله ، فى انتزاع أرزاق فرائسه . ففى سنة ١٩٤٦ تمشى سيارات

نبريرين على الأشلاء ، وتخوض في الدماء . وفي سنة ١٩١٩ يهيب
ق من أبواق الاستعمار البغيض ، هو صحيفة الاجبشيان ميل ، بقومه
ستعمرين . أن يبدوا المصريين المتظاهرين في الاسكندرية بالديابات
تباد الحشرات اللداعة ، وإذ ذاك غلا الدم في عروقي ، كما يغلي اليوم ،
نبأاً للكرامة المصرية ، وضناً بالدماء الطاهرة الزكية ، فناديت
مى أن لا تخافوا إن الله معنا . وبالأمس ناديتهم — أن لا تهنوا
لا تحزنوا ، فالله معنا ، والمستعمر ، بوحشيته ، حرب على
سه ، لا علينا .

٣١ مارس من عام ١٩٤٧ يوم تطهير المدن المصرية من أدناس
رجاس جنود المتوحشين ! علم الله ، لقد تنازعنى في ذلك اليوم
أمل مختلفة ، أفرح ملء قلبي وعيني أم أحزن . فأما الفرح فلأنى
أرى تلك الوجوه الحمر التي تعب من دم الأبرياء ، وأما الاشفاق
إن بقاءهم يبقى شعلة الوطنية مضطربة . على أنى لست أخشى من
خدير يصيب الوطنية المصرية التي أقسمت قسماً حقاً ، وستبر
بها إن شاء الله ، أن لا تكف عن الجهاد حتى يبرأ الوادى ، جنوبه
شماله ، من كل أثر للمستعمرين .

وفي سنة ١٩١٩ لطخ المستعمرون صحيفة استعمارهم بالدماء ،
كانوا السفاكين السفاحين ، والذين أسالوا الدماء ، وأزهقوا
أرواح ، في القاهرة والاسكندرية والعزيزية والبدرشين وغيرها

وغيرها من مدن القطر الآمنة المطمئنة ، فما أخذوا شعلة الوطنية ، بل زادوها ضراما . وفي سنة ١٩٤٦ أراقوا الدماء وانتزعوا الأرواح ، فلم يقتلوا الحركة الاستقلالية ولكننا انتحروا بأيديهم . وفي سنة ١٩٤٧ خيلوا للمصريين بالجللاء الزائف فما خدعوا الوطنيين ، ولكن كانوا أنفسهم يخدعون .

ويسأني مواطني عن بربرية الاستعمار البريطاني فأقدم لهم الشواهد الدامية ، على سبيل المثال ، لا سبيل الحصر . ففي عام ١٩١٩ ، وعلى مسرح قرية ميت القرشي من أعمال مركز ميت غمر مثل الاستعمار مأساة دامية إذ خرج صبية ينادون نداءات وطنية . وإذا هم يتظاهرون أقبل من الزقازيق قطار مسلح يحمل بعض الجنود الذين نيط بهم إخماد الحركة . وما أن أبصروا الغلمان الهاتفين حتى أوقفوا القطار ، ثم صوبوا البنادق ، وشرعوا الأسنة ، فلهع الصبية خوفاً وجزعاً ، وانخلعت قلوبهم الغضة البريئة من هول ما رأوا ، فهرعوا إلى مزرعة قمح قريبة وهم يحسبون لغراتهم أنها تعصمهم من وحشية الجند ، إذ تحجبهم عن أبصارهم ، وظن الصغار لسذاجتهم أن رجولة الجنود تأبى عليهم أن ينكلوا بالصغار على أفطع وأبشع صور التنكيل ، ويمثلوا بالصبية على صورة لم يرو لها التاريخ مثيلاً ، وأن من ينازل الرجال لا ينزل الأطفال ، ومن يصاول الأبطال لا يصاول الصغار . وخاب ظن الصغار الأبرياء فأمعن الكبار الجبناء فيهم تقتيلاً وتنكيلاً .

وكأنما لم يكن المراد القتل بل الإخاش في القتل . فلقد أثبت التشريح
إذ ذاك أن جثث بعض الأطفال قد مزقتها اثنتى عشرة رصاصة .
إذ كان الوحش ينقض على فريسته فلا يشبع شهوة القتل في نفسه
الا أن يفرغ في صدر الفريسة عشر رصاصات أو تزيد . ولقد أجهزوا
على أربعة وعشرين غلاما . وتناقل الناس إذ ذاك أن آخر كلمة
كانت على بعض تلك الأفواه الصغيرة البريئة : يحيا الوطن ! كما تناقل
الناس إنه في يوم ٢١ فبراير من عام ١٩٤٦ كان وطنى من المصايين
برصاص المستعمرين الغادرين يلفظ النفس الأخير ، و يلفظ معه
كلمته الأخيرة : تحيا مصر !

وفي ميت القرشى أصابت رصاصة طائشة عروساً كانت تهيأ
للزفاف فآمنا إذ ذاك بأن الحرية عروس لا تزف إلى الشعوب إلا
وحناءها الدم .

ولسنا والله ندرى كيف يمعن المستعمرون في تقتيل الوادعين
المسلمين من المصريين ، فيعمون عن تلك الحقيقة الخالدة ألا وهى
أن من يعمل للحرية أو ضدها يخدمها على السواء ، وأن شجرة الحرية
لا تروى إلا بدماء الأبرياء ، من الضحايا والشهداء .

ويا أيها الوطنيون إن شتمت مزيداً من الأدلة على همجية الاستعمار
البريطانى فاذكروا مأساة دنشواى الدامية إذ بطش الأقوياء بالضعفاء
على صورة دلت على أن قلوب المستعمرين من الانجليز قد أقفرت

من كل أثر للرحمة . فلقد نصب المستعمرون المشانق فى ساحة القرية .
وأعدوا للجلد معداته وأدواته . وأقبل الجلادون يتهادون . وسبق
البائسون إلى العذاب ، بمرأى ومسمع من أهل القرية ، وبمشهد من
آباء المحكوم عليهم وأبنائهم وزوجاتهم . وكانوا يبدأون بأعدام
رجل بمشهد ومسمع من أولئك الذين ينتظرون سياط الجلادين
تمزق ظهورهم تمزيقاً . وكانوا يلهون بالسياط جسوم المحكوم عليهم
بالجلد ، بمرأى ومسمع من أولئك الذين يرقبون بين لحظة وأخرى
أن تعلق رؤوسهم فى المشانق . وكان بكاء الأطفال ، وولولة
النساء ، وانتحاب الرجال ، يختلط بأصوات الذين يعدمون ، وصيحات
وصرخات الذين يجلدون ، فتشق أجواز الفضاء ، وتبلغ السماء ،
فتشكو لعدل الله ، ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وتستنزل اللعنة على
رؤوس المستعمرين ، وتستدر النقمة على المتكبرين المتجبرين ، وإن
ربك للمستعمرين بالمرصاد !

ويشهد الله وهو أعدل الشاهدين ، ويقول التاريخ وهو أصدق
القائلين ، أن كتشنر وهو قائد حملة السودان ، كان يأمر رجاله بأن
لا يأخذوا أسرى من الدراويش ، وأن يذبحوا فى غير شفقة ولا رحمة ،
جميع المهديين الذين يقعون فى قبضة أيديهم .

فلعل السير عبد الرحمن المهدي يذكر ذلك ولا ينساه .

ولما تم الاستيلاء على الخرطوم ، انتهك قبر المهدي ، وفصل

الرأس عن الجسد ، ثم أعطى الرأس لحفيد غوردون فاحتفظ به حيناً من الدهر كاحدى العاديات . واتخذ الضباط البريطانيون من أظافر الخليفة المهدي تماًم بها يتبركون ، وحمايل بها يتزينون ، فلما أثبتت تلك المآسى والمخازى فى مجلس العموم البريطانى لم يخجل بلفور من أن يملأفه بأن كتشتر لم يعمل إلا بوحى ضميره ، كأن نبش القبور من وحى الضمير ، ولم يأمر إلا بما رآه وفقاً لصالح البلد الذى خدمه فى أمانة وإخلاص ، كأن الاجهاز على الجرحى من الأمانة والاخلاص . ولم يتلجلج بلفور أو يتلثم ، وهو يعذب الحقائق والوقائع ، ليبرر تعذيب بنى آدم من لحم ودم ، وإنما علا وجهه شئ من حمرة الخجل ، حين قال فى صوت خافت : « ربما لم تكن هذه الأعمال من حسن الذوق فى شئ ، ولم تراع فيها آداب السلوك ، وكذلك لا يعادل تجرد المستعمرين من الرحمة والانسانية ، إلا تجرد ساستهم من الضمير .

ففى أن حاضراً الانجليز مع السير عبد الرحمن المهدي لا ينسبه ماضيهم مع أيه ! واسكن هيات أن لا يخطف بريق الذهب الأبصار فيعميها عن المخازى والمآسى .

وفى حرب البوير كان الانجليز يستعملون رصاص « دم دم » وكان كل جرح تحدثه تلك القذيفة الجهنمية قاتلاً . وكان الانجليز يبررون وحشيتهم بأن الرصاص العادى لا يحميهم من بطش البوير .

وكانوا إبّان الحرب يجمعون الأطفال والنساء والشيوخ في الخيام
ثم يضرمون النيران فيها ليحرقوهم أحياء !

وفي أواسط أفريقيا ، طلب ضابط بريطاني أن يشهد طعام الذين
يأكلون لحوم البشر ، فسيقت فتاة صغيرة ، فذبحت ، ثم بقر بطنها ،
تحت سمع الضابط الباسل وبصره ، دون أن تتحرك في قلبه عاطفة
الرحمة والشفقة فيتحرك لا تتشال الفتاة الضحية من هول المصير !

وفي جزيرة جاميكا ، كانت إذا بدرت من الزوج بادرة ثورة
راح الانجليز يصطادون الانسان كما يصطادون الحيوان .

وفي استراليا وغيرها من الجزر كان الانجليز يتدربون على الرماية
في الهنود الحمر .

ولإبّان الثورة المصرية عام ١٩١٩ يروي الرواة الثقة الذين لا يرقى
الشك إلى صدق أقوالهم أن عسكر الانجليز كانوا يطلون من نوافذ
القطارات الحربية ، فيجربون الرماية بالبنادق في الانسان والحيوان .

وفي عام ١٨٨٢ ، حين ترامت إلى مجلس العموم البريطاني أنباء
ضرب الاسكندرية بالقنابل ، كبر الأعضاء لآباء الشؤم والعدوان
وهلّولوا ، واستخفهم الطرب حتى لكأنهم أطفال يشهدون ألعاب السهام
النارية ، وكان مدينة عامرة تضم بين جوانحها مائتي ألف نسمة أو
يزيد ، ينصب على رموسهم الحديد والنار ، لاتستحق كلمة رثاء ، أو عبارة
إشفاق ، من جماعة الانسانيين الذين يحملون للشعوب رسالة الحضارة !

لقد أقفرت قلوب الانجليز من الرحمة ، في كل زمان ومكان .
في كندا ، والولايات المتحدة ، والهند ، وجنوب أفريقيا ، وارلندا ،
ومصر ، وفلسطين ، وفي كل بلد نكب باستعمارهم المشؤم . فاما الابداء
واما الاستغلال . أبادوا فريقاً من الهنود الحمر ، واستغلوا الهنود
والمصريين في أبشع صور الاستغلال ، وساموهم سوء الخسف والنكال .
وأذاقوا الارلنديين ضروب البطش وألوان التشكيل .

وإن الناظر الى تاريخ نسكة فلسطين بهم لتحمر عيناه من هول
مناظر الدماء التي أهرقوها للعرب في سبيل إنشاء وطن قومي لليهود
تنفيذاً لوعده بلفور المشؤم في عام ١٩١٧ . وتراهم أسوداً على العرب ،
جنباء أنذال أمام اليهود الذين ينكلون بهم في شر صور التشكيل إلى حد
أن يخطفوا رجالهم ، ويجلدوا بالسياط ضباطهم !!

وكما أقفرت قلوب المستعمرين من شعور الرحمة ، كذلك خوت
نفوسهم من شعور العدالة حيال الذين يستضعفون جانبهم . فقد اجتروا
على تحميلنا مسئولية حوادث ٢١ فبراير و ٤ مارس الدامية ، وليس
في أيدي أحرارنا قطرة دم ، وأيدي رجالهم تقطر من دم الأحرار .
وليس أدل على انعدام شعور العدالة في نفوس المستعمرين أنهم يكيلون
بكيلين ويزنون بميزانين ، أنهم يطالبون المصريين بالتعويض ويجمدون
أمام أعمال التدمير والتخريب والتقتيل من جانب الارهابيين من اليهود .
على أن مصر كانت دوماً تقابل النار بنور اليقين ، والحديد بقوة
الإيمان ، وسوف ينتصر حقها على باطل المستعمرين ولو بعد حين .

بريطانيا النازية

لما عقد لواء النصر للحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، قال اللورد نورثكليف إن بريطانيا كسبت الحرب بقنابل الورق مشيراً بذلك إلى أثر الدعاية في كسب الحروب .

ولعل اللورد ويفربروك لا يعدو الحقيقة ، إذا هو نادى اليوم ، بعد أن خرجت انجلترا من الحرب العالمية الثانية ظافرة ، بأن قنابل الورق هي التي قضت على ألمانيا النازية .

وفي الحق ، فقد أعلنت بريطانيا حرب الدعاية على ألمانيا ، فاستطاعت أن تسوق لقتالها نصف الكرة الغربي ، وأن تحشد لملاقاتها أربعاً وخمسين دولة ، وبعبارة أخرى استطاعت أن تعيئ لمهاجمتها أربعة أخماس قوى العالم مجتمعة .

وما كان لانجلترا أن توفق إلى تأليب العالم على ألمانيا لولا حرب الدعاية التي شنتها عليها ، فصورتها في صورة سوداء قاتمة ، تدين بمبدأ الاعتزاز بالقوة ، والاستهتار بالضعف ، فتبغى بسط سلطاتها على العالم ، وتعتنق مذهب العنصرية ، فتناصب الديمقراطية العداء ، وتدوس حريات الشعوب الصغيرة تحت الأقدام .

واليوم تقوم بريطانيا النازية ، على أنقاض ألمانيا النازية ، فتتورط فيما اتهمت به فريستها ، فتعمل على فرض سيادتها على العالم ، وتغرق

إلى أذنيها فيما أخذت به ضحيتها، فتزع إلى العنصرية، وتنظر إلى الأمم المستضعفة، من غير جنسها ولونها، نظرة ازدراء، فتهضم حقوقها، وتنتهك حرياتهما، غير وانية ولا مترفقة .

وما نشك في أن بريطانيا كانت تتهم ألمانيا بما هو فيها . وسواء أكان الداء قديماً، أم كان طارئاً، فالذى لا يمارى فيه انسان، له عينان للنظر، وأذنان للسمع، هو أن بريطانيا اليوم تعتنق مبادئ ألمانيا النازية، وتجرى على أساليبها، فليس من التجنى في شيء أن نسميها بريطانيا النازية .

وبالأمس كانت الدبلوماسية البريطانية، لا تتورع عن أن توسع حدود الامبراطورية، بإضافة حلقات جديدة، في سلسلة ضحاياها، بقوة الخداع، والتجرد من الضمير تارة، وقعقة السلاح إن اقتضى الأمر تارة أخرى، واليوم لا تتعفف تلك الدبلوماسية اللاضميرية عن الالتجاء إلى الخداع حيناً، والقوة حيناً آخر، لتحقيق أحلامها في السيادة العالمية .

أرأيت إلى تشرشل وايدن، كيف يصفقان إلى أتلى ويفن، كلما شددا قبضتهما على الامبراطورية البريطانية، وأضافا حلقات جديدة إلى سلاسل الاعتداءات القديمة، ولو أوشك صفو الأمن الدولي أن يكدر، والسلام العالمى أن يهدد .

ثم أرأيت إلى السياسى العجوز تشرشل، كيف هرول إلى أمريكا،

وهو يرجو أن تتضافر جهودها ، مع جهود إنجلترا ، لتقيما الحواجز ، في الشرق والغرب ، في وجه التيار الشيوعي ، وتضربا نطاقاً حديدياً حول الاتحاد السوفيتي ؟ وهل ذلك إلا لأن روسيا تنصب اليوم نفسها مدافعة عن حقوق وحریات الشعوب الصغيرة ، وتخيل للعالم أنها تقف في وجه الطغيان البريطاني ، وقد كدت أقول الطغيان النازي ؟ وإذا استشعرت إنجلترا من نفسها العجز عن الصمود في وجه الموجة السوفيتية ، توارت بالحجاب ، وتحصن جون بول ، خلف ظهر العم سام ، وتبدت أمريكا على المسرح الدولي ، سافرة غير مقنعة ، تبتغي صد التيار السوفيتي ، فتجاهر بتقديم المعونة العسكرية والاقتصادية لتركيا واليونان ، فتصوغ حلقتين في سلسلة التطويق ، لروسيا السوفيتية .

وانجلترا ضعيفة ولكنها تتبدى في مظاهر القوة . ولقد بلغ من إحساس أمريكا بضعف إنجلترا أن نصح شيخ أمريكي بأن لا يتورط الأمريكيون في مد يد المعونة للأسد البريطاني الهزيل مخافة أن يجرهم إلى الحروب الدموية . واقترح شيخ أمريكي آخر أن تنضم إنجلترا إلى أمريكا ، وتصبح ولاية من ولاياتها ، يمثلها نائبان بريطانيان . وهل من شك في أن إنجلترا اليوم ، في الميدان السياسي العالمي ، تمشي ذيلاً من ذبول أمريكا ؟

وفي شريعة الأرض أم في شريعة السماء ، يكون احتلال اليونان ،

وفلسطين ، وجنوب أفريقيا ، ومصر ، والهند ، واجتياح أندونيسيا ،
خلالاً على البريطانيين ، ويكون احتلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا ،
قبل الحرب ، وغيرهما من أمم الغرب ، إبان الحرب ، حراماً على
الألمان ؟ إذا لم يكن الكيل بمكيالين ، والوزن بميزانين ، فالعدالة
تقضى بأن يشور الضمير العالمى فى وجه الظلم البريطانى اليوم ، كما ثار فى
وجه الظلم النازى بالأمس ، فالنازية هى النازية ، وإن تبدت فى ثياب
سكسونية .

وابتدعوا للعالم اليوم أساليب طريفة للغصب والعدوان . ففريق
يعتمد إلى السطو على الشعوب الآمنة المطمئنة تحت ستار الدعوى
بأنه يرمى إلى تأمين حدود بلاده . وفريق يهتك عرض الحرية ، ويسحق
الحقوق تحت قدميه ، ثم يعذب الحقيقة . فيزعم أنه يلتمس نقطا
استراتيجية لا أكثر ولا أقل .

فأذا أهاب العالم بساسة آخر الزمن ، وأين وثيقة الأطلسى ، هل
رسبت فى قاع المحيط ؟ وأين الحريات الأربع ، هل تبخرت فى الهواء ؟
وأين عهود المؤتمرات ، ومواثيق سان فرانسيسكو ، هل أضحت
قصاصة ورق ؟ وأين هيئة الأمم المتحدة ، هل قبرت إلى غير بعث ؟
وأين مجلس الأمن الذى تتزلزل لقواته الأرض ، وتخشع البحار ،
ويضطرب الجو ، هل مات وليداً ، أم هل تبخرت قواته فى الهواء ،
وبأت وجوده فى ذمة التاريخ ؟ وهل يشيع اليوم إلى مقرها الأخير

هيئة الأمم المتحدة ، كما شيع أختاً لها من قبل ، هي عصبة الأمم
البائدة ؟

لئن تساءل الناس على تلك الصورة ، خرس ألسنة الساسة ،
وابتلعت ضمائرهم العهود والمواثيق ، كما تبتلع حقوق الشعوب وحرياتها .
وإن تعجب فعجب لصحيفة بريطانية ، أو بوق من أبواق
الاستعمار ، ينادى بأن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والاسلام
مسألة تزداد خطورة ، وأن الاسلام لن يتجه إلى بريطانيا ، إذ أن
الاسلام قد اتجه الآن إلى الاتحاد السوفيتي بصفته عدواً كبيراً للنظام
الامبراطوري البريطاني . ونحب أن نصارح ، بداءة ذي بدء ، ذلك
البوق الاستعماري الضال المضلل ، بأن الحركات الوطنية لاتصطبغ
بالصبغة الدينية ، وإنما هي حركات استقلالية ترمى الى تحرير الشعوب
من ربة الاستعمار البريطاني ، ثم نود إذا هالته تلك النزعات الحرة
البريئة ، أن ينحى على سياسة بريطانيا النازية باللائمة ، فلا تزال الى
اليوم ، تدوى في سمع العالم ، صيحة تشرشل إبان الحرب ، إذ قال
لخصومه الذين يلومونه على وضع يده في أيدي الروس ، مع الفوارق
البعيدة في المبادئ والنظم ، إني أؤثر التحالف مع الشيطان على انتصار
المانيا النازية .

فلا تشريب اليوم على الشعوب التي تبغى تحطيم قيود الاستعباد ،

وكسر سلاسل الاستبداد ؛ أن تستعين بكافة القوى التي تقف في وجه
الظلم .

ولا جناح على مصر أن تستصرخ الضمير العالمى وتفزع الى
أمريكا وروسيا ، وتهرع إلى المنظمات الدولية فى سبيل تحرير النيل .
إن الاحتلال البريطانى يهدد السلام العالمى تهديداً خطيراً فلا إثم
على مصر أن تستنصر بكل دولة تخاصم إنجلترا ، بل الإثم كل الإثم ،
والاجرام الوطنى غاية الاجرام ، أن نضيع الفرص السانحة
بالمفاوضات والمساومات .

وكما تبغى بريطانيا النازية فرض سيطرتها على العالم ، فانها تعتنق
مذهب العنصرية . فتحترق الشعوب من غير جنسها ولونها ، وتدوس
حقوقها وحرىاتها تحت قدميها . ولئن شئت أمثلة حية فأمامك الأمثلة
فى مصر والسودان والهند وجنوب أفريقيا . أرايت كيف يستهينون
بحقوق المصريين وحرىاتهم ؛ كما يستهترون بحقوق الهنود وحرىاتهم
وقد جادوا لهم بالمعونة فى الحرب ، فضنوا عليهم بالاعتراف بالحقوق
والحرىات بعد النصر ؟

يقول الكاتب الفرنسى « اميل بوتى » : « إن السياسة البريطانىة
لا تصطنع الشفقة حيال الضعفاء ، وتعالى فى القسوة عليهم ، وتتجرد من
كل أثر للعدل وكرم النفس قبلهم . وبينما تنكش تلك السياسة
وتتضاءل أمام الأقوياء ، إذا بها تطفى ، وتلبس جلد النمر للضعفاء .

كأما الأمانة والصدق والانسانية والكرم حيال الضعفاء إنما هي حقائق وراء شاطئ المانش البريطاني، ولكنها أباطيل لدى شاطئه الآخر. وإن تلك الدبلوماسية المتجردة من الضمير لم يستنكرها الشعب البريطاني من بلهرستون بل مجدها في شخصه.

والآن ندع الكلمة لمسترون ونستون تشرشل، قال في كتابه «حرب النهر» عن حملة السودان ورفع العلم على الخرطوم: «لقد أرسلت فصائل من الضباط والجند، من كافة الفرق، ما بين بريطانية ومصرية، في قوارب المدفعية، عبر النيل، لتشارك في الاحتفال بذكرى غوردون، وتشهد رفع العلم البريطاني على أطلال الخرطوم. ثم أمر القائد المظفر، يحيط به الجنود الذين قادمون إلى مواطن النصر أن ترفع الأعلام. ثم أدى الضباط والجنود التحية العسكرية. وعزفت الموسيقى النشيد المصري والبريطاني. ثم هتف السردار بحياة جلالة الملكة ثلاثاً. ثم رتلت الأناشيد الدينية، وخاصة الأنشودة الدينية التي كانت حبيبة إلى قلب غوردون. وعلى تلك الصورة تم الاحتفال وقد كان خليقاً أن يحول دون إقامته وجود تسعة آلاف جثة قتيل تغطي سهول أم درمان فضلاً عن آلاف جثث أخرى مبعثرة في جوانب الصحراء، أو جرحى يزحفون إلى النهر التماساً للماء».

ونترك للكاتب الانجليزي «هوبسون» التعقيب على الوصف الذي أورده تشرشل لتسكون الصورة كاملة بارزة في تمثيل الانسانية

السكسونية . قال هوبسون ، إتماماً لما أغفله تشرشل : « بينا الكاتب لتلك العبارة يغفل الخاتمة ، كان اصطياد الجرحى الزاحفين على بطونهم التماساً للماء يجرى بأيدي الجنود الذين هم تحت قيادة البريطانيين ، وبذلك تكمل الصورة بما فيها من دواعي الدهشة والعجب ، وامتزاج بين الراية البريطانية ، والأنشودة الدينية ، والثأر لغوردون ! ألا ليت الانفصاليين ، وعلى رأسهم حزب الأمة . وفي طليعتهم السير عبد الرحمن المهدي ، يسمعون هذا الوصف الدامي ويعونه ، وإذا سمعوه ينتفعون به ، وخاصة إنه منحدر من قلبى بريطانيين إسماء ومعنى ، ولحمًا ودمًا ، ونخاعاً وعظاماً ، ألا وهما ونستون تشرشل بطل وثيقة الاطلسي وحرب تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها ، وهوبسون الكاتب الانجليزى المنصف ؛ وكما تنبت الواحة في الصحراء ، كذلك ينبت بعض المنصفين في الجزيرة البريطانية .

وهل اجتياح صفوف المتظاهرين من المصريين ، وتمزيق صدور المسلمين ، وإزهاق الارواح البريئة تحت السيارات المتجنبة ، واقتحام القرى الآمنة المطمئنة ، وترويع الأطفال والنساء والشيوخ من أهلها ، وتقتيل رجالها ، إلا العنصرية الذميمة في أقبح صورها ، وأسوأ معانها ؟ والآن تتجلى رسالة الوطنية المصرية في مكافحة بريطانيا النازية . فلا مندوحة عن تعبئة الجهود القومية للنضال ، وليس يكفي إعلان الجهاد ، بل لابد من تنظيم الجهاد . ولا تكفى المناداة بمقاطعة كل ما هو انجليزى ، بل لابد من وضع قواعد المقاطعة ورسم وسائلها .

لقد بات ديناً في أعناق أبناء النيل من الجنوب إلى الشمال أن يعلنوا حرب الدعاية على بريطانيا النازية ، في الداخل والخارج ، فيبثوا الدعاة في جوانب وادى النيل . وينفذوا الرسل إلى كل مكان في الخارج . ويبعثوا بالدعاة إلى الهند والبلاد القريبة ، وإلى أمريكا ، وروسيا ، وبريطانيا نفسها وبذلك يستطيعون أن يؤلبوا العالم على بريطانيا النازية ، كما ألبت هي العالم على المانيا النازية من قبل .

السياسة البريطانية بين حربين

كسبت انجلترا الحرب العالمية الأولى بعد تضحيات هائلة في
الأنفس والأموال. ويبدو أنها كسبت الحرب العالمية الثانية بعد تضحيات
أشد هولا في الأموال والأرواح. ولكن السياسة البريطانية، برغم
تلك الخسائر المادية والمعنوية، لم تتغير روحا وغاية، كأنما هي بحاجة
إلى درس دموى ثالث. يعلمها أن تفعل ما تقول، أو ينقذ العالم من
دسائسها، وإثارتها للفتن والحروب.

ولئن خيل لبعض الناس أن السياسة البريطانية قد دخل عليها
شيء من التغيير بسبب تقلد العمال زمام الحكم، فالتغيير في الصورة
دون الجوهر، وبعبارة أوضح وأصرح، فالتغيير في الوسائل دون
الغايات، واقد أبدت الأيام للعالم ما كان يجهل من أن جماعة العمال
من غلاة الاستعمار كطائفة المحافظين.

وفي الحق أن الانجليز سياسة مرسومة، كرت دهور، ومرت
أجيال، ولم يلحقها شيء من التبدل أو التحوير، سواء أحملت طابع
الأحرار، أم المحافظين، أم العمال. فقد كان غلادستون على رأس
وزارة الأحرار، فوقع في عهده من التوسع الاستعماري ما لا يكاد
يقاس به ما ضم إلى أملاك التاج البريطاني في عهد دزرائيلي وهو
المعروف بأنه من دهاقنة الاستعمار.

وعسى أن لا يغيب عن ذاكرتنا أن ماكدونالد ، وقد كان زعيم العمال ، قال وهو فى بيت سعد ، إنه كفيل بحل المسألة المصرية فى الفترة التى يتناول فيها فنجان القهوة . ودارت الأيام دورتها ، وتسئم العمال غارب الحكم ، والتقى سعد وماكدونالد وجهاً لوجه ، فلم يكن كبير العمال أقل تشبهاً بمبادئ الاستعمار من ملنر وكرزون .

واليوم نرجو أن لاتخدع الظواهر المصريين ، فالعمال كالمحافظين وإن اختلفت الخطط ، وتباينت الأساليب . فى الحرب العالمية الأولى ، وفى سبيل نصره قضية الحلفاء ، بذل المصريون من أموالهم ودمائهم ، ثم آمنوا بالوعود الواسنية التى أذنت فى الناس بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، فهبوا يطالبون بحقهم فى الاستقلال ، فقابلت السياسة البريطانية ، وكانت مصطبغة بصبغة الأحرار ، حركتهم بالقمع والاضهاد .

وفى الحرب العالمية الثانية ، لم يضن المصريون بتضحية ، فى سبيل نصره قضية الديمقراطية . فلما وضعت الحرب أوزارها وتسلم العمال مقاليد السلطة ، صدق المصريون وثيقة الأطلسى ، وآمنوا بما بشر الحلفاء به من اعلان الحريات الأربع ، أو الفقاقيع الأربع ، فقابل العمال تضحياتهم بالعقوق ونكران الجميل ، وأبوا عليهم الجلاء ووحدة وادى النيل .

لقد كانت الحرب العالمية الأولى حرباً استعمارية فى أوسع حدود الكلمة ، انتهت باصابة المنتصرين بحمى الطمع فى تقسيم العالم ، والظفر

بأعظم قسط من المغامر والأسلاب . وكان المنتصرون يترنمون ،
أيام المجزرة البشرية . بأناشيد الحق والعدل والحرية . فلما أسدل
لستار على تلك المأساة الانسانية ، كان أكبرهم الظافرين ،
رغاية الغايات عندهم ، أن يمزقوا أوصال الشعوب المغلوبة ، ويلتهموا
شلاءها . فلما دعى لينين إلى حضور مؤتمر الصلح ممثلاً لروسيا أعلن ،
في وجه العالم بأسره ، أنه يربأ ببلاده ونفسه ، أن يجلس حول المائدة
الخضراء ، جنباً إلى جنب ، مع قوم أجمعوا أمرهم فيما بينهم على سرقة
شعوب العالم .

ومامن شك في أن التاريخ يعيد نفسه . ولقد ظهر أن الحرب العالمية
الثانية استعمارية مثل أختها الأولى . ولا تلبث أن تضع جراثيم الحرب
العالمية الثالثة . بل إن شبح تلك الحرب يرتسم في أفق العالم من جديد .
ولقد صرح هنري والاس بأن الماردين الأمريكي والروسي
يتأهبان لحرب القناء وأن بريطانيا ودول الغرب ستقع بين المطرقة
والسندان . فقد صحت نظرة أو نظرية ويلز من أن الانسان يشيد
صروح الحضارة ثم لا يلبث أن يقوض دعائمها ، ويهدمها من أساسها .
وصدقت عبارة برناردشو من أن الانسان قد برهن ، في كل عصور
التاريخ ، على أنه غير جدير بسكنى هذا الكوكب .

إن أروع مأساة في تاريخ الانسانية ، هزت كيان الحضارة أعنف
الهزات ، بل كادت تعصف بها ، لم تبرئ الانسان من شهوة

إن هذا الشريط الأزرق الذى يربط الشرق بالغرب ويجعل مصر ملتقى طرق العالم ، ويصل بينها وبين قارات ثلاث هى أفريقيا وأوروبا وآسيا ، يجعل المسيطر عليه فى مركز استراتيجى منيع ، ويكفل له الغلبة ، وهذه الاعتبارات كان وجود قوات أجنبية على ضفافه مثاراً للحروب الطاحنة وخاصة إنه أضعف شريان فى جسم الامبراطورية البريطانية كما يقول الانجائز أنفسهم . وإذن فلا بد أن تكون مصر على الحياد الدائم وأن يكون هذا الحياد مضموناً من جميع الدول حتى لا يكون لاحداها التفوق على الأخرى ، وحتى لا يكون قيام السيطرة الأجنبية عليها داعياً لاطلاق الحروب العالمية من عقالها ، وانتزاع السيادة من انجلترا بعد ضربها الضربة القاصمة .

وحرية البحار تصبح كلمة جوفاء إذا بقيت قوات بريطانيا لها السلطان على قناة السويس . وليس يصح فى الأفهام أن يكون هناك ضمان للسلام العالمى إذا لم تكن حرية البحار مكفولة .

وحرية التجارة هى حجر الزاوية فى بناء السلام العالمى . وليس مما يكن تصوره قيام تلك الحرية مع وجود قوات مسلحة متسلطة على قناة السويس وهى أهم طرق التجارة العالمية .

وإذن فحرية القناة فى السلم والحرب ، هى أقوى ضمان لتحقيق السلم العالمى . ومصلحة الدول جمعاء تقضى بأن يكون لمصر وحدها حق ، وعليها واجب ، حراسة قناة السويس دون أن تشاركها فى ذلك

دولة أجنبية منفردة ، على أن تكون حيدة القناة مكفولة من جميع الدول دون المساس باستقلال مصر ، أو التدخل في شئونها الداخلية. إن ترديد السياسة الاستعمارية لنغمة الاشتراك مع مصر في الدفاع عن قناة السويس ، في عصر المدنية الذرية ، هو بمثابة السخرية بالعقول ، ولا يمكن أن تنطوي تحته إلا الرغبة الجامحة في احتلال مصر. وما وجه أن تبدى السياسة الاستعمارية وتعيد في ضمان الحكم الذاتي للسودان ، واستبقاء الحكم الثنائي المصرى — البريطانى شكلاً ، والبريطانى موضوعاً ، وأخيراً بدعة الاستفتاء في تقرير المصير ، إلا أن تكون الجريمة محتمرة في الرؤوس الاستعمارية على بتر السودان عن جسم مصر ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ؟

إن السياسة البريطانية تعطينا من طرف اللسان حلاوة ، وتروغ منا كما يروغ الثعلب . فما ينفعنا أن تقسم جهد إيمانها أن موقفها حيال مصر مشبع بالعطف ، إذا كانت تدوس استقلالنا تحت قدميها بدعوى صيانة المواصلات الامبراطورية ، وتجهز على حريتنا متعللة بالضرورات الاستراتيجية .

لقد سقط قناع الرياء عن وجه السياسة الاستعمارية ، وبدأت سافرة في مطامعها ، وتحت بريق الابتسامة الخادعة لا تستطيع أن تخفى مظهرها وهى تكشر للوحدة والجلاء عن أنياب الاغتيال ، فإذا نصنع ؟ نصنع كما يصنع كل شعب مغلوب على أمره ، لا يملك إلا الحق

تصفية الامبراطورية البريطانية

وقف تشرشل إبان الحرب العالمية الثانية خطيباً ، فأهاب بسامعيه ، بل أهاب بسمع العالم بأسره ، أنه ماجاء الوزير الأول ليشرف على تصفية الامبراطورية البريطانية . وبذلك سقط قناع الرياء السياسى عن وجه شيخ المحافظين ، فبرز متشبعاً بالروح الاستعمارية ، رغم المجزرة البشرية التى لطخت وجه الأرض بالدماء ، وبدت بريطانيا سافرة ، تخوض غمار الحرب ، لا ذوداً عن الديمقراطية ، وحرىات الشعوب الضعيفة ، ضد طغيان الطوفان النازى ، ولكن دفاعاً عن امبراطوريتها المتداعية الأركان التى شيدت بدماء الاستبداد ، وجماجم الاستعباد .

ثم وضعت الحرب أوزارها ، فأقبل حزب العمال يتهدى إلى مقاعد السلطان ، بعد أن عقد النصر بلوائه فى المعركة الانتخابية . فعقد قصر النظر السياسى ، على حكم العمال ، الآمال الكبار . على أن شيخ العمال اتلى ما لبث أن أيقظهم من أحلامهم إيقاظاً خشناً ، إذ أعلن بملء فيه ، فى وجه العالم أجمع ، أن العمال يحرسون على الامبراطورية حرص إخوانهم المحافظين عليها ، بل هم أشد حرصاً . ثم جاءت الحوادث والأحداث ناطقة بأن العمال والمحافظين فى الاستعمار سواء .

وترى المحافظين والعمال ثملين بخمرة النصر ، فلا يشعرون بأن
امبراطوريتهم تترنح للسقوط ، ذلك بأنها أمست تعيش في زمان غير
زمانها ، ومكان غير مكانها . فأذنت شمسها بالغروب ، وفقدت عناصر
البقاء ، ودبت إلى أحشائها عوامل الفناء ، وأخذ بناؤها يتهدم ،
وصرحها يتصدع ، فأشرفت على الانهيار والزوال . ولعلنا لا نقبر
حتى نقبر تلك الامبراطورية الهرمة المتهدمة التي بنيت بالأشلاء
والجماجم . وإذا كان جيبونز قد وضع كتابه الخالد عن تدهور وسقوط
الامبراطورية الرومانية ، فعسى أن يتاح لنا أن نضع كتاباً متواضعاً
عن انحلال الامبراطورية البريطانية ، يكون عبرة للجيل الحاضر ،
والأجيال المقبلة .

وليس من يمارى في أن انتصار بريطانيا في الحرب الأخيرة قد
مد في عمر امبراطوريتها فترة من الزمن قصيرة . ورغم الظواهر
والمظاهر ، فمشأها مثل البالون الذي تكفى إبرة لتفش نفخته الكاذبة .
فما بالك إذا بات هذا البالون السكسونى الأجوف الفارغ يتلقى
الطعنات والوخزات من كل جانب ، في الداخل والخارج . بل ما بالك
إذا كانت معاول الهدم تقوض هذا القصر في اسبانيا .

لقد توارت المانيا مؤقتاً من مسرح السياسة العالمية ، وزال الخطر
الذى كان يهدد انجلترا من غرب أوروبا . فاذا قال نابليون إن أنفرس
هى المسدس المصوب إلى صدر انجلترا ، فقد تسلط المارد النازى حيناً
على شواطئ غرب أوروبا كلها فكاد يمحوا الجزر البريطانية من الوجود

أو يغرقها في اليم كما أغرق أسطولها الحربى والتجارى. ولكن اختفت
المانيا الهتلرية ، فنبتت روسيا السوفيتية وهبت عواصف الخطر على
الامبراطورية البريطانية من شرق أوروبا . وعندنا أن الصراع بين
العملاق الأمريكى والعمللاق الروسى هو فى الحقيقة صراع على من
يرث الامبراطورية البريطانية المحتضرة .

كان الألمان يقولون إن تشرشل هو الذى يحفر قبر الامبراطورية
البريطانية بيده . ولعلنا لا نجاوز الحقيقة أو نعدو الصواب ، إذا قلنا
بأن تشرشل قد قام اليوم ينعى الامبراطورية أو يؤنبها بمقالاته التى
يقول فيها أن التوسع السوفيتى هو ضربة قاصمة للامبراطورية .

وروسيا السوفيتية أشد خطراً على الامبراطورية البريطانية من
المانيا الهتلرية . فهى تفوقها فى الموارد البشرية والموارد الطبيعية . وهى
تتأخم الامبراطورية من جوانب عديدة . وليست تحميها منها بحار كما
كان حائط الماء فى المانش يحمى انجلترا نفسها من غائلة الجبار النازى .
وأساليب الحرب الحديثة ، من قنابل ذرية ، إلى قنابل صاروخية ،
إلى أشعة كونية ، إلى الماء الثقيل ، كل أوائك يجعل الامبراطورية
البريطانية كلها ، بل انجلترا ذاتها فى متناول التدمير والتخريب إلى حد
أن هنرى والاس ينذر اليوم بأنه إذا اشتبكت أمريكا مع روسيا فى
حرب فسوف تكون انجلترا وأوروبا بين المطرقة والسندان ، ويحل
بها جميعاً الدمار والخراب .

ويهدد الدب الروسى الامبراطورية البريطانية من ناحية المضائق
وجهة الخليج الفارسى . ولعل أخطر ما ينطوى عليه التهديد السوفيتى
هو تلك الروحية المستمدة من مبادئ لها سحر يستهوى النفوس
والعقول معاً .

بل إن رياح الخطر تهب نكباء على الامبراطورية البريطانية من
يقظة الوعى الوطنى فى الشعوب التى ترزح تحت نيرها . فمصر والسودان
وفلسطين والهند وبورما وجنوب أفريقيا كلها تتأهب اليوم لكسر
القيود ، وتحطيم الأغلال .

ولقد كانت انجلترا فى الماضى تشهد بناء امبراطوريتها المتداعى
بالتغريب والتضليل ، ولكن أباطيلها وأضاليلها قد انكشفت .

ولقد كانت تحكم بالهيبة والنفوذ أكثر مما تحكم بالقوة المادية ،
ولكن ظهر الآن ، بعد الحرب العالمية الثانية ، أنه لولا روسيا وأمريكا
لأصبحت انجلترا نفسها فى ذمة التاريخ .

قد يعترض علينا بأن انجلترا تحتوى اليوم بأمريكا لتحمل لها
امبراطوريتها وتدفع عنها غائلة روسيا السوفيتية . ولكن نظرة عميقة
فاحصة تكفى للاقتناع بأن أمريكا إن صنعت ذلك فانما تصنعه بأفدح
الأثمان لانجلترا ، وهو أن تكون الوارثة الطبيعية الامبراطورية
البريطانية إذا قدر لها أن تقوى على تقليد أظافر الدب الروسى .

فعلى أى وجه قلبنا مسألة الامبراطورية البريطانية نجد أنها تحمل فى جوفها جرائم موتها ، وأنها صائرة إلى الزوال ، سواء أكان على يد الغير ، أم من هبات الشعوب المستعبدة التى تنزع إلى الحرية ولا تطيق الاستبداد .

وإئن بدت شجرة الامبراطورية ، لبعض النظرات السطحية ، اليوم زاهية مزدهرة ، فهى وشيكة الذبول . وإئن أضاءت جوانبها فمصرها القريب إلى الأفول . والشمعة يزيد اشتعالها حين توشك أن تنطفىء . ولسوف تصدق نبوءة البانديت جواهر لال نهرو الزعيم الهندى ، إذ تنبأ بقيام الملايين من شعوب آسيا بثورة تتطور فنشعل حرباً عالمية ثالثة . ولقد تحدث عن جنوب شرق آسيا وأندونيسيا فقال : «من الواضح أن بريطانيا تحارب فى معركة خاسرة ، وأن معين قوتها الامبراطورية القديمة قد أخذ ينضب . وإينه من المؤكد ، فى هذا العالم غير المستقر ، أن شعوب آسيا لن تدعن عن طيب خاطر لأية امبراطورية أو أية سيادة ، بل إنها ستقوم حتماً بثورة لن يخمدوها شئ . ولا القبلة الذرية ، وتؤدى إلى حرب عالمية ثالثة » . وختم الزعيم الهندى نبوءته بقوله : « إن هناك تشابهاً مفاجئاً بين حرب التدخل البريطانى فى أندونيسيا ، وحرب التدخل الأخرى التى أشعل نيرانها فى أسبانيا الفاشيون الايطاليون والنازيون الالمان ، وقد كانت مقدمة للحرب العالمية الثالثة . ولقد أخذنا نرقب التدخل

البريطاني بينما كانت تنمو في نفوسنا روح السخط والشعور بالعار مع عدم القدرة على عمل شيء بالنسبة للقوات الهندية التي تستخدم في القيام بعمل بريطانيا القدر ضد أصدقائنا الذين يقومون بنفس المعركة التي نحن قائمون بها .

قد يقال إن حرارة الايمان الوطني هي التي أوحى إلى القائد الوطني نهرو بتلك الصورة السوداء القائمة عن مستقبل الامبراطورية البريطانية ، ولكن ها هو السير جون أندرسون وزير المالية في الوزارة البريطانية السابقة ، يصرح بأن الحرب قد كلفت بريطانيا ما تتراوح قيمته بين تسعة آلاف مليون وعشرة آلاف مليون من الجنيهات . ولما كان الدين الوطني لما قبل الحرب هو تسعة آلاف مليون جنيه فقد تبين عند إقفال الحسابات الخاصة بشئون الحرب أنه ارتفع إلى خمسة وعشرين ألف مليون جنيه . وبينما كانت بريطانيا قبل الحرب دولة دائنة إذا بها تصبح الآن دولة مدينة بدين خارجي يبلغ على وجه التقريب نحو أربعة آلاف مليون جنيه . ولعمري إن الصورة التي يرسمها أندرسون عن عوامل الانحلال في الامبراطورية البريطانية هي في الواقع أشد سواداً من الصورة التي يرسمها نهرو . ولقد كان نابليون يقول إن المال عصب الحرب ، وهو في الواقع عصب السياسة ، بل هو عصب كل شيء . فإذا كانت إنجلترا قد أصبحت ماليتها مثقلة إلى الحد الذي يصوره وزير ماليتها السابق ،

فلا شك أن امبراطوريتها تمشى إلى الفناء بأسرع الخطوات .
وإن ننس فلا ينبغي أن ننسى أن أحد غلاة المستعمرين من الانجليز قد
أرسل صيحة الفرع من جراء النقص الفاحش في وسائل النقل البحرى
بعد الخسائر الفادحة التى كبدتها الغواصات النازية للبحرية البريطانية
حتى كادت تجعلها أثراً بعد عين ، وينذر بالطامة الكبرى إذا استردت
أمريكا الأربعماية سفينة التى منحتها لانجلترا بطريق الاعارة والتأجير ،
معلناً أن بريطانيا سوف تفقد مكانها لا محالة كأعظم دولة للنقل البحرى .
وإذا ظل المستعمرون الانجليز يعيشون وسط القرن العشرين
بعقلية القرن التاسع عشر ، وإذا كانت بريطانيا العظمى ، التى أصبحت
دولة من الدرجة الثانية ، تجمد فلا تتطور حتى تسير روح العصر
فهى تتقهقر ، ثم تتضاءل وتنكمش حتى تصبح هى والبرتغال سواء .
قبل الحرب كانت لبريطانيا السيادة على البحار . وبعد الحرب
بقيت لها السيادة ولكن على قاع البحار . وإنى لأذكر مقالا لمجلة القرن
التاسع عشر وما يليه ، ترثى فيه البحرية البريطانية ، وتقدر أنه فى نهاية
سنة ١٩٤٤ سيكون لأمريكا أسطول حربى وتجارى يعادل ثلاثة
أخماس أساطيل الدنيا مجتمعة . وها أن الأسطولين الألمان واليابانى
قد أصبحا فى خبر كان ، ولكن أمريكا قد انتزعت علم البحار من
بريطانيا ، وبات الأسطول البريطانى لا يكاد يذكر إلى جانب الأسطول
الأمريكى ، بل أصبحت انجلترا نفسها ذيلاً لأمريكا . ولذلك فقد
أمسّت انجلترا فى حالة عجز تام عن الدفاع عن امبراطوريتها .

وخرجت أمريكا من عزلتها، واندفعت تبتغى التوسع الاستعماري في شرق آسيا، والشرق الأوسط، لابل في جوانب الدنيا الأربعة. وإذا اصطدمت بانجلترا في المعركة الاستعمارية، فانجلترا هي المهزومة لا محالة، نظراً لتفوق أمريكا الساحق في الجو والبحر والبر، وخاصة لتفوقها الماحق في ميادين الاقتصاد.

ودرجت روسيا السوفيتية على أساليب روسيا القيصرية، فانتشرت في الأرض طامحة. وهي تخيل للشعوب بمبادئ المساواة الخلافة، وتنصب نفسها مدافعة عن حريات الأمم، فتصرخ في وجه بريطانيا أن تتخلي عن مصر وفلسطين والعراق قبل أن تطالب قواتها بالجلء عن إيران.

وأهم من تلك العوامل جميعاً يقظة الوعي القومي في الشعوب المستعبدة من الاستعمار البريطاني، وشعورها العميق بحقوقها في الحياة والحرية، ورغبتها الصادقة في تحطيم أغلال الاستعمار. وإذا كان هذا هو مبلغ إيمانها بضرورة طرح نير الرق عن عاتقها، وكسر قيود العبودية عن أرجلها، فليس يحدى معها جبروت أو خداع.

وفي العهد الفكتوري باغت انجلترا ذروة التقدم الصناعي إذ كانت الصناعة تعتمد على الفحم الأسود، وكانت انجلترا غنية به. فلما اكتشف الفحم الأبيض الناتج من مساقط المياه، وتضاعفت تلك القوة الآلية المحركة بالقوة الهائلة الناتجة من الوقود السائل المسمى

بالبتروول ، فقدت بريطانيا ميزة السبق فى مضمار الصناعة ، وتقدمت عليها المانيا وأمريكا . وإذا كانت المانيا قد اختفت الآن من الميدان الصناعى ، فان قوة الصناعة الأمريكية كفيلة بانتزاع أسواق العالم من بريطانيا . وكل من له عينان للنظر ، وأذنان للسمع ، يرى ويسمع آيات تفوق أمريكا على انجلترا فى ميادين الصناعة والاقتصاد .

وكان غلاة الاستعمار من البريطانيين ينادون بأن التجارة تتبع الراية ، أى أن القوة المادية الغاشمة تفتح الأسواق الخارجية فى ممتلكات التاج التى يضع الاستعمار البريطانى يده عليها عنوة أو خداعا . ولكن إذا كان قد ظهر فساد تلك الدعوى قبل الحرب ، فلقد بات فسادها بعد الحرب ، أشد ظهوراً . ولو أنصف المستعمرون مرة واحدة ، لقالوا إن التجارة تتبع الحرية . فلقد لوحظ أن تجارة بريطانيا نمت وازدهرت مع المستعمرات التى منحت الحكم الذاتى ، على حين أنها ظلت راكدة فى الأمم المستعبدة كالهند مثلاً . وأعجب من ذلك أن تجارة انجلترا مع الدول الحرة المستقلة تربع ، بما لا يقاس ، على تجارتها مع الأمم الخاضعة لسلطانها ، وتجارها فى الداخل أضعاف أضعاف تجارتها فى الخارج ، وما تنفقه مواردها على التسليح والحرب ومغامرات الدبلوماسية المتجردة من الضمير ، فى سبيل فتح أسواق خارجية قوة واقتداراً ، يستنفد أكثر من نصف مواردها المالية إلى حد صرفها عن تحقيق وجوه الإصلاح الاجتماعى . وحتى قدر بعض الباحثين

من الانجائز أنفسهم ، وعلى رأسهم هوبسون ، أن أكثر من ربع سكان المدن البريطانية يعيشون بما دون الكفاف .

ولقد تجلّى سوء الحالة الاجتماعية بعد الحرب ، وشلت الصناعة البريطانية أو كادت ، وانحدرت التجارة إلى أعماق هاوية الكساد ، وعزت المواد الغذائية والمواد الخام : وعقد البؤس غيومه السوداء في أفق انجائزنا ، ولن تروج الصناعة ، وتزدهر التجارة ، حتى تطلق مبدأ الاستعمار ، وتعتنق مبدأ الحرية ، وتتواصى مع ضحاياها من الشعوب ، بالاستقلال الصحيح .

لقد مضى وانقضى عصر الرأسمالية ووليدها الاستعمار . وأن لأصحاب رؤوس الأموال وأصحابهم من دعاة الاستعمار ، أن يعترفوا بأن هذا الحاف الثنائى المشؤوم بين الرأسمالية الدولية والاستعمار يجر إلى الحروب الدموية فى سبيل النزاع على الأسواق الخارجية ، وأن الحروب تتطلب دوام التآهب ، والتسلح يقتضى باهظ النفقات ، ويحدث فى المصانع والمعامل مجاعة فى الأيدى العاملة ، فيدعو إلى بؤس المواطنين ، وإلى شقاء الانسانية جمعاء .

ما أشبه الامبراطورية البريطانية بذلك الوعل الذى يعيش فى قم الجبال فى جنوب أفريقيا . فلقد استرعى أنظار وأفكار بعض الباحثين أنه ينحدر من قمة الجبل ، ثم يتابع انحداره حتى يهبط إلى سفح الجبل ، ثم لا يلبث أن يقذف بنفسه فى البحر مؤثراً الموت على الحياة . ولقد

اهتدى الباحثون إلى أن ذلك الوعل إذا افتقد الفتيامينات فلم يجدوها ،
عمد إلى الانتحار على الصورة التي قدمنا . وكذلك تفقد الامبراطورية
البريطانية الفتيامينات فتدخل في دور النزع . ولقد كان خيراً لبريطانيا
أن تعيش بروح شكسبير وداروين من أن تعيش بروح كليف
وسيسيل رودز .

إن الأرقام لا تكذب ولا تحابي . وهي تنادى بصوت عال
رهيب أن الاقتصاد ينمو في جوار الحرية ، وأن التجارة تزدهر في
بيئة الاستقلال ، وأن القهر والعنت لا يمكن أن يدوما . نخير لبريطانيا
أن تعدل عن فكرة الامبراطورية ، قبل أن تكرر لها الأيام على
العدول ، وأن تعجل بالجللاء عن السودان ومصر وفلسطين والعراق
والهند وجنوب أفريقيا وشرق آسيا ، وتنشئ مع شعوبها علاقات
تجارية حرة .

إن كثيراً من الباحثين البريطانيين ، وفي طليعتهم هوبسون ،
يشيرون على قومهم بتطبيق فكرة الامبراطورية إذ أن إثمها أكبر من
نفعها ، أو أن كلها آثام ، ولا جدوى فيها على الإطلاق . فمنطق
الأرقام ينادى بأن الامبراطورية تضر بالصناعة القومية ، وتؤذى
التجارة ولا تنفعها ، وتحدث قحطاً في الأيدي العاملة ، وتضاعف
النفقات حتى تكاد توقف حركة الإصلاح الاجتماعي ، ثم تتوج كل
تلك الأضرار الفادحة بكوارث الحرب العالمية التي تكاد تعصف
بكيان إنجلترا نفسها .

وليس يغنى عن المستعمرين شيئاً أن يعطوا ضحاياهم من الشعوب جرعة من الحرية ، فلقد تنبه الشعور الوطنى فى تلك الضحايا إلى حد التماس الحرية صحيحة ، والاستقلال كاملاً ، غلاباً واغتصاباً ، طوعاً أو كرهاً . ولقد صدف الضحايا جميعاً عن المخدر البريطانى وهى تزهد فيه لأنه قد يصرفها عن الجهاد . وما أصدق تشبيه جمال الدين الأفغانى الاستعمار البريطانى بذلك الخفاش الهندى الذى يحثم على صدر النائم ولا ينفك يمتص دمه فى رفق وهوادة والفريسة لا تشعر بالألم بل لعلها تشعر بشيء من الراحة لأنه فى أثناء استنزاف الدم يروح عليها بجناحيه وما يزال بها حتى يتركها جثة هامدة لاحتراك بها . ألا فليعلم المستعمرون من الانجليز أن الخفافيش التى لا تعيش إلا فى الظلام لا تحيا فى ضوء الحرية .

وسواء أكان تشرشل يحفر قبر الامبراطورية البريطانية بيده أو يرثيها بقلبه ، فلعله لا يلقى مصرعه حتى يشهد مصرعها ويشرف على تصفيتيها . لقد دفن مركز بريطانيا الدولى . وفقدت سيطرتها العالمية ، وكذلك تبدد الأوهام ، وتحطم الأصنام ، وفى عصر النور يتلاشى الظلام ، وإن تبعث من مرقدها مهما شق تشرشل وأضرابه من الجيوب ، ولدموا الحدود . ومهما سكبوا من عبرات ، أو بذلوا من دموع ودماء .

وحدة وادى النيل حقيقة طبيعية

لا يمارى فيها إلا المستعمرون

آثرت أن أتناول بالبحث وحدة وادى النيل ، إذ هى المطلب لمقدس الذى انعقد عليه إجماع السودانين والمصريين على السواء ، إيماناً منهم بأن تلك الوحدة هى مسألة حياة أو موت بالنسبة للقطرين لشقيقين ، ولأن تاريخ هدم تلك الوحدة يلقي كثيراً من الضوء على الاعيب السياسة الاستعمارية ، ويصم بريطانيا النازية ، بما كانت تصم به المانيا النازية .

وليعلم من يريد أن يعلم من المستعمرين وصنائعهم المبعثرين فى جنبات الوادى ، أن أى اتفاق يحمل فى أحشائه وضع المسألة لسودانية على الرف ، أو يعتمد إلى أنصاف الحلول ، أو يلجأ إلى الصيغ الخلابية ، والصور البراقة ، إنما يولد ميتاً .

فأما تمزيق أوصال الوحدة تحت ستار تقرير المصير ، أو أى ستار آخر ، فدون ذلك ويجرى النيل دماً .

والآن أنادى بأعلى صوتى وملء فمى ، أنه يسكنى أن يلقي المرء نظرة عابرة على الخريطة . ليزداد إيماناً بأن النيل المبارك يربط بأقدس رباط بين نصف واديه الشمالى ، ونصف واديه الجنوبى ، وأن الطبيعة نأبى الالباء كله الفرقة والانفصال ، وما كان ليد الاستعمار أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل .

ولقد سمعت اعتراضاً يتهامس به صنائع الاستعمار ، وتردد
الأبواق الاستعمارية نغماته ، يقول بأن نهر النيل في أفريقيا مثله كمثل
نهر الدانوب في أوروبا ، إذ يجمع كلاهما بين شعوب متفرقة ، ولو
شاء ربك لجعلهم أمة واحدة . وأقول إن القياس مع ألف فارق .
فالدانوب يجتاز شعوباً تتباين في الجنس والدين واللغة والعادات
والتقاليد والذكريات التاريخية ، فأما النيل فيضم قوماً يتحدثون في
الجنس والدين واللغة والعادات ، وتؤلف بين قلوبهم رغبة التحرر
من نير الرق والعبودية ، والعيش في وئام كأخوة متحابين .

وما زالت كلمة هيرودوت الملقب بأبي التاريخ : « إن مصر هبة
النيل » تدوى في سمع العالم .

وما برحت الطبيعة تغرد بأعذب الألحان ، تلك الأنشودة
الخالدة التي تغنى بها عمرو بن العاص ، ورددها قيثاره الدهر ، إذ
هتف وهو يرسم لمصر صورة رائعة تملأ الأسماع والأبصار : « يشقها
نيل ميمون الغدوات ، مبارك الروحات » .

وأخاف أن يقال هذا شاعر يحاق في أجواء الخيال ، فأسارع
بالهبوط إلى مستوى حقائق الأرض ، فأخاطب المستعمرين باللغة
المادية التي يفهمونها ، فقلوبهم غاف ، وضمائرهم متحجرة ، لا ينفذ
إليها شعاع من نور الحق والحقيقة ، لأن الأطماع تغشى على أبصارهم
فتحجب عنهم الحقائق ، ولأن الماديات تتسلط على مشاعرهم ، فتجعل

الشهوات الجامحة تطفئ على الشعور السليم ، والعقل المتزن ، وتقتل عاطفة الانصاف ، وتميت ملكة الحكم والتقدير . على أن ما نردده ما هو بخيال شاعر ، ولكنه حقيقة طبيعية لا يمارى فيها أحد من المنصفين .

إذا اختمرت في رأس الاستعمار البريطاني جريمة فصل السودان عن مصر ، لتكوينن أسود جريمة في التاريخ ، وليكونن من يغمس يده فيها ، أشد الناس إيغالا في الاجرام القومى ، فما الفصل بين السودان ومصر إلا بمثابة عملية البتر ، وتمزيق أوصال الوحدة الطبيعية ، لا بل هو فصل الروح عن الجسد .

ألا وإن أشد المتعنتين من المستعمرين ليعترف بتلك الحقيقة الهائلة الرهيبة وهى أن مصر بغير النيل تصبح صحراء قحلاء جرداء لا حياة فيها ولا إحياء .

وإن الموازنة البسيطة بين الفيضان العالى والفيضان المنخفض ، أو بين الرى والجفاف ، لتبرز صورة الفروق الواضحة بين الازدهار والانتعاش ، والذبول والموات ، أو بين الخصب والنماء ، والجذب والاحمال .

سيقولون : ومنذا الذى يفكر فى حرمان مصر من مياه النيل ؟
أو منذا الذى يستطيع أن يقطع عنها ماء نهرها ؟

فأما إن في الأمكان قطع مياذ النيل عن مصر ، فهذا مالا سبيل
إلى اللجاجة والمكابرة فيه حتى من المستعمرين أنفسهم . فلقد بلغ العالم
من التقدم العلى والهندسى ما يجعل تلك الحقيقة فى حين المستطاع ،
لا من نسج الخيال المحموم . وهل أعى رمسيس ، ولم يكن العالم قد
بلغ المرحلة الحاضرة من التقدم العلى ، أن يحول مجرى النيل ؟

لقد شاء اللورد كرومر أن يسكن نائرة المخاوف لدى الفلاح
المصرى من هذه الناحية ، وقد كان يخلع على نفسه لقب نصير أصحاب
الجلاليل الزرقاء ، وكان قومه يصفون عليه أثواب أحد بناءة
الامبراطورية ، فكان لاينى عن التأكيد بأن فتح السودان كان ضرورياً
لحفظ كيان الدولة المصرية التى يقبض بيده على مصارها . وما كان
ليكنتم خوفه من أنه إذا بقى السودان أرضاً لا يملكها أحد من الناس ،
لاستولت عليها الدول الأوروية ، ولحولت مجرى النيل إلى جهات
أخرى تملكها . ومن أجل ذلك جاء الحكم الثنائى الانجليزى المصرى
مؤيداً لتلك الحقيقة وهى أن النيل نهر مصر ، ما فى ذلك شك ولا ريب .
ونحن نبادر إلى الجهر بأن النيل ليس نهر مصر فحسب ، وإنما هو
نهر السودان ومصر ، وأن النازلين على ضفافه ، من منبعه إلى منصبه ،
لهم نفس الحقوق وعليهم ذات الواجبات .

وباطل ما زعم المستعمرون من الانجائز من أنهم لم يقيموا الحكم
الثنائى المزعوم الموهوم فى السودان إلا ليحولوا دون تحويل مجرى

النيل من جانب الدول الأوروبية ، ويبعدوا عن ربوع السودان شبح الامتيازات الأجنبية التي كانت مضر تنوء تحت أثقالها في ذاك الحين ، وإنما أرادوا أن يشبعوا شهوة الاستعمار في نفوسهم ، ويضعوا حجر الأساس في صرح امبراطوريتهم الأفريقية ، ثم أنشأوا مشروع الجزيرة لا لتعمير السودان ، ولكن لاستغلال السودانيين ، ورجاء أن تنقلب معامل لانكشير من مجاعة قطنية إلى تخمة قطنية . وفي كل حال ، فنحن نأخذهم باعترافهم بأن تحويل مجرى النيل ، وصيرورة مصر صحراء ، ليس من مخترعات الأوهام .

وما التهديد بحرمان مصر من مياه النيل بتهديد أجوف طالما كانت هناك قوة أجنبية مهيمنة على منابعه . ولو بقى الانجليز في السودان ، وانجلوا عن مصر اظلوا متحكمين في مصر ، متسلطين على مصيرها . ولو أخلى الانجليز السودان ، وظلوا في مصر ، وكانت للبصريين يد في السودان ، لاستطاعوا إجلاءهم عن مصر بقطع ماء النيل عنهم . فهذا التهديد هو بمثابة سيف ديموقليس المعاق على رؤوس المصريين ، والمسلط على استقلالهم في كل حين .

والتاريخ على ما نقول شهيد . ففي ١٨ نوفمبر من عام ١٩٢٤ ، وقعت جريمة اغتيال السيرلي ستاك باشا سردار الجيش المصري . وكان على رأس الوزارة سعد زغلول . واستنكرت الأمة تلك الجريمة النكراء بجميع هيئاتها وطبقاتها . وبرغم كل أولئك فإن اللورد اللنبي

المندوب السامى البريطانى فى مصر فى ذلك الحين ، أبى إلا أن يوجه للحكومة المصرية إنذاراً ، أو تبليغاً ، أو بلاغاً نهائياً ، أو سمه ما تشاء ، يفيض بالتهديد والوعيد ، ويفرض على مصر العقوبات الصارمة التى لا تمت إلى تلك الجريمة بسبب ، وجعل اللورد المتجنى فى رأس العقوبات أن الحكومة السودانية ، وإن شئت فالسلطة البريطانية المطابقة ، ستزيد المساحة التى تروى فى أرض الجزيرة من ٣٠٠.٠٠٠ فدان إلى رقم غير محدود وفقاً لما تقضى به الحاجة !

والمعنى الذى تنطوى عليه تلك العقوبة ، كما يقول المعلقون من أشياخ الانجليز أنفسهم ، أنه ابتداء من ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ لم تعد الحكومة البريطانية تسلم بأن النيل نهر مصر ، وأن لندن جعلت النهر العظيم تراثاً خاصاً للسودان ، أو على الأصح شراباً غير سائغ للشاربين من المستعمرين .

الاستعمار عدو الوحدة

استغل الاستعمار البريطاني حادث اغتيال السردار في أبشع وأشنع صور الاستغلال ، فلم يتورع عن اغتيال حقوق مصر ، ولم يتعفف عن التنكيل بها ، إذ فرض عايتها عقوبة تنطوي على حرمانها من مياه النيل ، وهي جريمة لا تمت إلى الجناية بسبب ، مما أثار عاصفة من السخط والاستنكار من جانب بعض المنصفين من الانجليز أنفسهم ، وندع الكلمة لأرنولد توينبي ، قال : « لقد كانت تلك العقوبة عرضة لنقد سريع وعنيف في بريطانيا العظمى لاعتبارات ثلاثة ، إذ لم تكن تمت بسبب إلى مقتل السرى ستاك ، وكانت نقضاً لميثاق بغير حق ، وكانت كفيلة بفقدان ثقة طائفة الفلاحين المصريين ، وقادة الحركة الوطنية في مصر ، على السواء ، ببريطانيا العظمى . ثم إنها تعزز الاقتناع في مصر بأن ليس هناك ضمان ملائم للحقوق المصرية في ماء النيل بدون رقابة سياسية مصرية خالصة على السودان » .

وفي نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٢٤ ترامت إشاعة ملحة في جوانب القاهرة بأن دوننج ستريت لم تنفذ هذا البلاغ النهائي شعوراً منها بفداحة الظلم الذي ارتكبته القوة الغاشمة ، ورغبة في تسكين عاصفة الاستنكار التي أثارها ذلك التبليغ المشؤم .

وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ تكلم السير أوستن تشمبرلن في

مجلس العموم البريطاني بصفته وزيراً للخارجية ، فأبدى أسفه لأن الطلب قد صيغ في عبارات غير محدودة بدعوى أن البلاغ النهائي قد كتب تحت سلطان العجلة .

ولقد قال وزير الخارجية في نفس الخطاب : « لو أنا وجدنا حكومة مصرية صديقة نتعامل معها ، وكانت تلك الحكومة مخصصة للشروط التي يقوم على أساسها التعاون فيما بيننا ، إذن لدعونا هم لأن يشتركوا معنا في تحقيق بحرى لمعرفة كمية المياه اللازمة للسودان بعد استيفاء مصر حصتها كاملة » .

ولم تمض إلا بضعة أيام حتى تبودلت الرسائل بهذا الشأن بين المندوب السامى البريطانى فى القاهرة وبين رئيس الوزارة المصرية . وفى يناير عام ١٩٢٥ كتب المندوب يقول : « إن حكومة جلالة الملك ميالة لأن توجه حكومة السودان إلى عدم تنفيذ التعليمات السابقة فيما يختص برى أرض الجزيرة فى السودان فى مساحة غير محدودة على أساس التفاهم لتأليف لجنة ذات خبرة بشئون الرى على رأسها محايد وفيها عضو انجليزى وآخر مصرى تجتمع فى ١٥ فبراير لغرض البحث فى ايجاد قاعدة للرى يمكن تنفيذها مع المراعاة التامة لمصالح مصر وبغير مساس بحقها الطبيعى والتاريخى » .

وإن دل ما سقناه من الشواهد التاريخية على شيء ، فانما يدل على أن الخطر على حياة مصر واستقلالها موجود ما دام الاستعمار البريطانى

كامناً في ربوع السودان ، وأن استقلال النيل لا يكون صحيحاً غير زائف إلا إذا انجلت القسوات البريطانية عن النيل من المنبع إلى المنصب ، وتحققت وحدة الوادى كاملة غير منقوصة .

لقد راح استقلال مصر ضحية للاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ المشنوم . ومنذ ذلك الحين أخذ الاستعمار البريطانى يتربص الدوائر بوحدة وادى النيل . وما لبثت تلك الوحدة أن وقعت فريسة بين برائنه فى ١٩ يناير من عام ١٨٩٩ المنكود . وتمت جريمة بتر السودان من جسم مصر على مراحل . فى عام ١٨٨٤ كان تبليت الجريمة . وفى عام ١٨٨٥ كان الشروع فى التنفيذ . وفى عام ١٨٩٩ تمت الجريمة ، ولا تزال الجريمة مستمرة .

لقد ضحى الاستعمار البريطانى برجله غوردون ليشتري بدمه السودان ومنابع النيل .

ثم أ برق الاستعمار وأرعد ، وأرغى وأزبد ، وتهدد وتوعد ، ليحمل مصر على إخلاء السودان لتم له جناية فصل الروح عن الجسد . وما نحن بمسرفين فى القول ، ولا متجنين على الاستعمار البريطانى ، بل نقذف فى وجهه بتلك البرقية الظالمة الغاشمة التى أرسلها اللورد غرانفيل إلى السير إفلين بارنج (لورد كرومر فيما بعد) بتاريخ ٤ يناير من عام ١٨٨٤ وهى تدل على مبلغ تجنى القوة المسلحة على الحق الأعزل ، قالت البرقية : « من الضرورى فى المسائل الهامة التى تمس إدارة أو سلامة

مصر ، أن نصيحة حكومة جلالة الملكة يجب أن تتبع طالما كان الاحتلال المؤقت مستمراً . وعلى الوزراء والمحافظين أن ينفذوا تلك النصيحة وإلا فقدوا وظائفهم . ومهما يكن من الاعتراض على إشارة الوزراء الانجليز ، فليس من شك في إيجاد مصريين ينفذون أوامر الخديو تحت النصيحة الانجليزية .

وكانت تلك البرقية التعسة بشأن التخلي عن السودان . ونود ، إكباراً للوطنية المصرية ، أن نصارح الاستعمار البريطاني بتلك الحقيقة التاريخية ألا وهي إنه لم يوجد المصري الذى تجرد من الوطنية ، وتعزى من شعور الشرف والكرامة ، فيقبل أن يغمس يده فى جريمة تمزيق أوصال وحدة النيل . ولم يقدم على هذا الجرم الوطنى إلا أجنبي شرب من ماء النيل ، ولكن لا تجرى فى عروقه الدماء المصرية ، وهو نوبار . فأما خالد الذكر والوطنية شريف باشا فقد صرح من كل قلبه فى وجه القوة الغشوم : « إذا تركنا السودان ، فالسودان لا يتركنا » . وأما رياض فقد أخفق فى تأليف الوزارة لأن المصريين ضنوا بكرامتهم ووطنيتهم أن يقترفوا ذلك الاثم القومى ، إثم تقطيع أوصال النيل . وأما نوبار فقد قفز إلى كرسى رئاسة الوزارة فأمر باخلاء السودان .

ويجدر بنا أن نذكر ، إنصافاً للحقيقة والتاريخ ، أنه فى ٩ ديسمبر من عام ١٨٩٤ أرسل رياض باشا إلى اللورد كرومر (السير إفلن بارنج

إذ ذاك) مذكرة قال فيها : لا يستطيع أحد أن ينكر أن النيل حياة مصر . والنيل هو السودان . وكل واحد يسلم بأن الروابط التي تربط مصر بالسودان هي بمثابة الروابط التي تربط بين الجسم والروح . ولو أن دولة تسلطت على منابع النيل لباتت مصر في قبضة يدها .

وفي عام ١٩٢٣ تدخلت القوة الغاشمة لحذف النصوص الخاصة بالسودان في الدستور . وكانت يد توفيق نسيم هي التي تخضبت بدم الجريمة .

وفي عام ١٩٢٤ استغل الاستعمار البريطاني مصرع السردار فطرد القوات المصرية من ربوع السودان .

ومن عهد إنشاء الحكم الثنائي الزائف في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، كانت مصر بمثابة الشريك المرفوع ، وكان عليها كل الغرم ، ولم يكن لها شيء من الغنم على الإطلاق ، وما كان الحكم الثنائي المزعوم الموهوم ، إلا خيالا متلاشياً ، أو وهماً من الأوهام الباطلة .

ولقد افترضت نية الاستعمار البريطاني في السيطرة على السودان ، وفصله عن مصر ، تحت ستار الرغبة الكاذبة في تحقيق الحكم الذاتي فيه .

وكان هدلستون ، حاكم السودان العام ، هو الأداة لتنفيذ أغراض الاستعمار البريطاني ، والمعول الهدام لتقويض دعائم وحدة وادي النيل . وكان حزب الأمة ، وعلى رأسه السير عبد الرحمن

المهدى ، هم صنائع الاستعمار وأدواته فى هدم وحدة وادى النيل من أساسها .

فأما تعيين السير روبرت هاو فلم يكن إلا لتتم الدبلوماسية ما بدأتها القوية المادية .

ولكن هيات ليد الانسان أن تهدم ما بنته يد الله . وإذا كانت انجلترا تتعلق بمصر لحماية امبراطوريتها أى لحماية غصبها وعدوانها فأولى لأبناء الوادى أن يتشبثوا بوحدة النيل ، مصدر الحياة .
ويد الله فوق أيدي الغاصبين ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

الانجليز المستعمرون

يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم

في ١٩ سبتمبر من عام ١٨٩٨ كادت فاشودة تكون مسرحاً دائماً لتصادم المطامع الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا . فقد بات كتشنر ، عنوان الاستعمار البريطاني ، وجهاً لوجه أمام مارشان ، رمز الاستعمار الفرنسي . غير أن انعدام تكافؤ القوى ، ما لبث أن حمل فرنسا على الانسحاب من الميدان ، والرضا من الغنيمة بالاياب . فقد كان مارشان على رأس قوة ضئيلة لا يتجاوز عددها مائة وعشرين من الجنود السنغاليين ، وتسعة من الضباط الفرنسيين ، على حين أن كتشنر كان يقود قوة كاملة العدة والعدد ، معظمها من الجنود المصرية ، وقليل منها من البريطانيين .

وأشفقت فرنسا أن تتطير شرارة الحرب من فاشودة ، فتندلع النيران إلى جوانب أفريقيا وأوروبا ، فاستكانت ، ونزلت على إرادة بريطانيا في الانسحاب . ولعل فرنسا لمحت شبح الحرب يتراءى في ثنايا تصريح اللورد سالسبوري إلى السفير الفرنسي كورسل ، إذ قال اللورد للسفير وهو يحاوره : « إن لدى السردار قوة كافية يستطيع بها أن يطرد مارشان ومن معه إلى حيث يشاء » .

وإنما ظهرت انجلترا على فرنسا ، في ميداني الحرب والسياسة معاً ، بفضل القوة المصرية ، والحقوق المصرية . فقد كان كتشنر ، في موقفه

من مارشان ، تظاهره قوة مصرية لا يستهان بها . وعقد النصر ، في معركة الدبلوماسية ، بلواء كتشنر ، إذ تسليح بالحقوق المصرية ، الطبيعية والتاريخية ، التي لا يرقى الشك إليها .

وحين هبطت القوة الفرنسية أرض فاشودة ، ادعت باريس أن تلك المنطقة ، ليست ملكاً لأحد ، بل هي ملك مباح ، ولقد تملكها الفرنسيون بحق الغزو ، ووضع اليد ، وبهذه المثابة أصبحوا يقبضون بأيديهم على سند التملك الشرعي الذي لا ينازعهم فيه منازع . وأحجمت وزارة الخارجية الفرنسية عن إرسال الدعوى طويلة عريضة ، باحتلال الخرطوم ، ومنطقتها في السودان ، إذ كانت تسلم ، جهرة وعلانية ، بأن الجزيرة ودنقله وما إليها وما يليها ، قد باتت في قبضة قوات كتشنر المظفرة .

وما يسترعى النظر والفكر معاً ، أن دوننج ستريت ، في سبيل تنفيذ دعوى فرنسا بامتلاك مديرية فاشودة بالفتح ووضع اليد ، قد تحصنت بحق مصر الثابت فيها ، واقتصرت على الحاجة بذلك الحق ، ولم تشأ أن تزعم ، لا تصريحاً ولا تليحاً ، أن لبريطانيا دعوى في التملك من أي نوع كان ، لا في فاشودة ، ولا في أي جزء آخر من أجزاء السودان .

ولقد بعث كتشنر نفسه برسالة إلى مارشان قال فيها إنه تلقى التعليمات بإعادة السلطة المصرية على فاشودة ، وإنه يحتاج بكل ما فيه

من قوة ، على رفع العلم الفرنسى فوق أملاك سمو الخديو . وما إن أصبح فى فاشودة حتى رفع عليها الراية المصرية دون الراية البريطانية . ثم شفع كتشنر تلك الرسالة إلى مارشان برسالة أخرى جاء فيها : « إن من واجبي أن أبلغك بأنه ، وقد رفع العلم المصرى اليوم على فاشودة ، فإن مصر قد تسلمت مقاليد الحكم فى تلك المملكة » .

وفى ٢ أكتوبر من عام ١٨٩٨ جاء فى تصريح اللورد سالسبورى إلى السفير الفرنسى فى لندن : « لقد كان وادى النيل ، ولا يزال ، ملكا لمصر . ولقد زالت كافة العقبات فى سبيل تلك الملكية ، أو أى مساس بها ، إنجم عن غزو واحتلال المهدي ، وذلك بفضل الانتصار فى معركة أم درمان بوساطة الجيش الانجليزى المصرى ، ولقد قبلت فرنسا وجهة النظر هذه ، واتفقت مصر وبريطانيا العظمى وفرنسا على الاعتراف ، وما زالت تعترف ، بأن السودان مملوك لمصر ، وما برح مملوكا لمصر ، .

ولقد أوردنا لغة شيخ الاستعمار سالسبورى بنصها وفصها ، وسقنا لهجته الجافة ، بعجرها وبحرها ، على كره منا ، فى معرض التدليل التاريخى . وإنا لنستطيع الأحرار من اخواننا السودانين والمصريين على السواء عذراً من تلك العبارات الاستعمارية النابية التى يثور ضدها الضمير الانسانى ، إذ تجعل الشعوب سلعاً تباع وتشتري ، وتتقزز منها النفس البشرية ، إذ تصير الأمم إماء ، تساق سوق الرقيق ، وتلك

اللهجة الانسانية التي يمجها العقل البشرى ، إذ يتساوم الأقوياء على الضعفاء . فنحن إذ نطالب بتحقيق وحدة وادى النيل إنما نطالب باسم الاخوة لا باسم الاستعمار .

نحن المصريين نبتغى تعمير السودان ، لا استعمار السودان . وبين نوايا المصريين ونوايا الانجليز ، هوة عميقة . فلقد ابتدع المستعمرون من الانجليز مشروع الجزيرة ، لاستغلال السودان ، وتغذية معامل لانكشير ، لا للنهوض بمستوى المعيشة فى السودان . وليس أدل على ذلك من أن الأجور التي يتقاضاها العمال السودانيون الذين يعملون فى أرض الجزيرة هى دون الكفاف ، حتى إن كثيرين منهم يهلكون جوعاً من قلة التغذية ، أو سوء التغذية ، فوق إرهاقهم بالأعمال التي تتجاوز حدود الطاقة البشرية . فأما المصريون ، فتشهد جميع المنشآت فى ربوع السودان ، من إنشاء السكك الحديدية ، إلى إقامة الطرق والكبارى ، إلى تشييد بور سودان ، إلى غير ذلك من أعمال الانشاء والتجديد ، ومظاهر المدنية والعمران ، قد تمت بأموال مصرية ، وجهود مصرية ، وأيد عاملة مصرية .

ولو صح فى الأذهان أن مصر ترمى إلى أغراض استعمارية فى السودان لزهدت فى استعمارها كل الزهد ، فلسوف يكون عليها الغرم ، وليس لها الغنم ، إذ سوف ترى نفسها مضطرة إلى سد العجز فى الميزانية السودانية ، كما ينادى بذلك الماضى ، وكما تشهد به ديون مصر

المترابكة على السودان . ولكن مصر تتشبث بمصدر حياتها ، وينشد المصريون أن تصافح قلوبهم قلوب اخوانهم السودانيين ، وتعانق أرواحهم أرواحهم ، فيعيشوا أحراراً أو يموتوا كراماً .

وفي ١٩ يناير من عام ١٨٩٩ المشنوم أقام البريطانيون الحكم الثنائي في السودان ، أو على الأصح ، تلك الشركة الوهمية الباطلة ، شركة الذئب مع الحمل ، تحت ستار الدعوى بأنهم يبتغون إقصاء النفوذ الأوروبي عن السودان مخافة أن يهدد حياة مصر بتحويل مجرى النيل ، ورغبة منهم في زحزحة كابوس الامتيازات الأجنبية عن صدر السودان . والله يعلم والتاريخ يشهد ، أن الشهوة الاستعمارية الجامحة هي التي دفعتهم إلى الاثرة والاستئثار بالسودان .

ولقد توافقت الدبلوماسية الانجليزية ، فالعمال والأحرار والمحافظون سواسية في الاستعمار ، كأسنان المشط أو كأسنان الحمار ، يختلفون في المظهر ويتفقون في الجوهر ، يتباينون في الوسائل ويتحدون في الغايات ، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ويقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يقولون ، ويختل ميزان العدالة في أيديهم فيكيلون للشعوب بمكيالين ، ويزنون بميزانين ، ويعتنقون مذهب ما كيفيللي في السياسة ، فيرون أن الغاية تبرر الوسائل . لذلك رأيناهم يحاجون فرنسا بحقوق مصر ، ثم يهدمون وحدة النيل للاستئثار بالسودان ، لأنهم يهدون بهذا الاستئثار لا بتلاع ما يسمونه

القارة السوداء . ولا تزال تدوى في سمع التاريخ صيحة شيخ الأحرار غلادستون في عام ١٨٧٧ حيث كشف عن اختمار الجريمة في رأس الاستعمار البريطاني لاحتلال مصر ، ثم هدم وحدة النيل ، قال شيخ الأحرار : « إذا هبطنا إلى مصر ، ولينا وجوهنا شطر السودان ، وإذا اتجهنا إلى السودان ، بسطنا سلطاننا من خط الاستواء إلى جنوب أفريقيا . وفرغنا من انشاء امبراطوريتنا الافريقية ، . وكذلك كان سيسيل رودس يعمل على مد خط حديدى يصل بين مدينة الرأس ومدينة القاهرة لتدين لسيطرتهم أفريقيا بأسرها .

ولئن طالب المصريون الانجليز بالجللاء عن وادى النيل من المنبع إلى المصب ، قالوا إن مصر هى الشريان الحيوى فى جسم الامبراطورية البريطانية ، ونسوا أو تناسوا أن النيل هو شريان الحياة بالنسبة لمصر والسودان . ثم يقولون إن مصر ، ترديداً لكلمة دزرائيلى ، هى السلسلة الفقرية فى جسم الامبراطورية ، ويتغافلون عن أن كسر وحدة النيل يقصم ظهر السودان ومصر جميعاً .

ويصطنعون الثورة فى وجه روسيا السوفيتية إذ يتهمونها بمحاولة سلخ أذربيجان عن ايران ، ولا يتورعون عن فصل السودان عن مصر ، أى فصل الروح عن الجسد .

ويلبسون جلد النمر لفرنسا ليرغموها على التخلي عن سوريا ولبنان ، ثم لا يتعففون عن اهتضام مصر والسودان .

ليس من شك في أن الروح التجارية التي تتسلط على الانجليز في سبيل تحقيق أرباح صفقة بأقل نفقة ، هي التي تغطي على شعورهم في عالم السياسة ، فتدفعهم لأن يظفروا بأعظم غنم بأقل غرم . وهم يحاولون أن يشتروا السودان بثمان بخس دسائس مكشوفة ، يحكيون خيوطها مع صنائعهم ، فيلوحون بأنفسهم دعاة الحرية ، وأبطال الاستقلال ، وينادون بأنهم يتحرقون وجداً على أن يقرر السودان مصيره بنفسه ، ويملاون أفواههم بأنهم يتهالكون غيره على أن يتمتع السودانيون بالاستقلال الذاتي ، فيجاهرون بضرورة أن يستفتوا بالطرق الدستورية ، وما يبتغون إلا امتصاص النيل من المنبع إلى المصب ، ولئن أكل ذئب الاستعمار وحدة النيل ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون .

لا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل

حين ثار النزاع بين إنجلترا وفرنسا بشأن فاشودة ، قال السير أدوارد غراي : « نحن لانستطيع أن نسلم للفرنسيين بأعلى النيل ، لأن النيل هو مصر ، ومصر هي النيل » .

فمن حق المصريين اليوم أن يصارحوا الانجليز أنهم لا يستطيعون التسليم لهم ببترا السودان من جسم مصر ، ففي هذا البترا قضاء على مصدر الحياة .

وفي ١٢ أكتوبر من عام ١٨٩٨ وقف اللورد روزبرى زعيم الأحرار خطيباً في السوم ، فقال : « نحن نوشك أن نعيد إلى مصر مايعتبر من وجهة نظر الحكومة البريطانية أرضاً مصرية » .

فمن أقدم واجبات مصر أن تهيب ببريطانيا أن كل محاولة ، في أية صورة من الصور ، يراد بها هدم وحدة النيل ، لا يكون نصيبها إلا الاخفاق .

ولما أقيمت مأدبة تكريماً لكتشنر خطب فيها اللورد كمبرلي فقال : « ليس في الجلاء عن فاشودة إذلال لفرنسا ، إذ صرحت الحكومة الفرنسية بأن الاقليم مثار النزاع ، إنما هو ملك لمصر » .

فمن حق الوطنية السودانية المصرية أن تملأ سمع المستعمرين بأن الإحجام عن الجلاء عن وادي النيل ، ليس فيه إذلال للسودان ومصر

فحسب ، وإنما هو تهديد خطير لكيانها واستقلالها ، أستغفر الله ، بل هو إجهاز على حياتها المشتركة .

وبتاريخ ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨ كتب اللورد سالسبوري إلى سفير إنجلترا في باريس فقال : « ليس من شك في أن حقوق مصر في امتلاك مجرى النيل كانت معطلة حيناً من جراء نجاح دعوة المهدي . على أنها حقوق ثابتة لا تحتل الجدل ، ولم يبق شك فيها بعد انتصار الجنود المصريين على الدراويش . »

ولقد دفنت لغة الفتح والتسلط ، بيننا وبين اخواننا السودانيين ، إلى غير بعث ، وحلت محلها لغة الوحدة والاخوة . ولا وجود للهجة الاستعمارية الممقوتة المرذولة بين الأخوين الشقيقين ، وإنما وجود تلك اللهجة الآثمة في خيال المستعمرين الانجليز ، وهي متغلغلة في أعماق نفوسهم ، فهذا الشريان الحيوى الذى يجرى مباركاً في جسم الوادى ، فيكسوه حلة خضراء من الخصب والثمار ، ويضفى عليه أثواب الحياة ، أولى أن يحرص عليه السودانيون واخوانهم المصريون من حرص الانجليز على اغتصاب قناة السويس التى يسمونها الشريان الحيوى في جسم امبراطوريتهم القائمة على الغصب والاستعباد . واثن كان دزرائيل قد وصف قناة السويس بأنها السلسلة الفقرية في جسم الامبراطورية البريطانية ، فمن خير الانسانية أن تكسر تلك السلسلة الفقرية ، فتطوى صحيفة الاستعمار في العالم ، وتقضى على مثار الحروب

العالمية التي توشك أن تقوض دعائم الحضارة . فأما كسر السلسلة
الفقرية بهدم وحدة وادى النيل فمعناه حرمان شعب النيل من
الحرية والحياة .

وفيم الاسراف في الاستشهاد بأقوال ساسة بريطانيا وتحت أيدينا
أقوال اللورد كرومر بطل الحكم الثنائى أو الشركة المزعومة الموهومة
التي تمخضت عنها اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، إذ قال : « لقد كان من
الضرورى ابتكار طريقة بحيث يكون السودان مصرياً إلى درجة إرضاء
المطالب السياسية العادلة ، وفى الوقت نفسه يسكون بريطانيا لى
نقصى عن إدارته تلك الشوائب التى تشوب كيان مصر السياسى ، .
ولا ريب أن شيخ الاستعمار يلح إلى وجوب صبغ السودان بالصبغة
البريطانية ليعبد عن ربوعه شبح الامتيازات الأجنبية .

وقال اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » : « إن ضم السودان
بواسطة إنجلترا ، وهو الذى يقضى على المعضلة الدولية ، قد استبعد
على أساس العدالة والسياسة » .

وفى تقريره لعام ١٩٠١ . قال اللورد كرومر ، بعد أن أشار إلى
الاعتمادات التى قررها مجلس شورى القوانين لفتح السودان ، لأن
السودان جزء من مصر لا يتجزأ : « إن هذا رأى صحيح فى جوهره .
ومع ذلك فإن الاتفاق الانجليزى المصرى المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩
هو الذى يضع القاعدة لنظام السودان السياسى . ولعل بعض أعضاء
مجلس شورى القوانين ، لا يفهمون المعنى الحقيقى لتلك الاتفاقية .

ولذلك فاني أنتهز هذه الفرصة المتاحة لي ، لأقول إنها لاتمس بحال من الأحوال حقوق مصر الشرعية . ولقد كان الهدف الذي يرمى اليه واضعو الاتفاق ، هو توفير حكومة صالحة للسودان ، ولانقاذ تلك المملكة من المشكلات التي صبتها الامتيازات الأجنبية على رأس مصر .

وفي تقريره لعام ١٩٠٣ ، حاول اللورد كرومر أن يلقي شيئاً من الضوء على ذلك الموقف الغريب الشاذ في السودان ، إذ تحقق الراية المصرية ، إلى جانب الراية البريطانية ، فوق ربوعه ، على حين أن بريطانيا لاتساهم بنصيب في نفقات إدارته ، فقال : « لقد وضعت الاتفاقية الانجليزية المصرية لسنة ١٨٩٩ اغرض واضح هو تجنب السودان شر القيود الدولية التي ضاعفت من متاعب انجلترا في إدارة مصر . ولو لم يكن هذا الظرف ، لما كان لنا حق في رفع العلم البريطاني على الخرطوم ، إلا بقدر ما يكون لنا الحق في رفعه على أسوان أو طنطا . »

ومعذرة إن كنا قد أسهبنا بعض الشيء في إيراد أقوال اللورد كرومر . فالتاريخ هو الذي يمزق قناع الرياء عن وجه السياسة البريطانية . فلقد تضافرت الحوادث والأحداث على إثبات أن جريمة اغتيال وحدة وادي النيل كانت محتمة في رأس الاستعمار البريطاني من عهد بعيد تمهيداً لاقامة امبراطوريتهم الافريقية بالدماء ، وعلى الجماجم

والأشلاء . وكل من له عينان للنظر ، وأذنان للسمع ، وضمير حى ،
يعترف بأن الاستعمار البريطانى كان مبيتاً النية على التهام السودان لقمة
سائغة ، وأخذ منابع النيل غنيمة باردة ، وما الخوف من تحويل الدول
الأوروبية لمجرى النيل ، والاشفاق على السودان من كابوس
الامتيازات الأجنبية ، وما ترتب على تلك المأساة المهزلة من أن
يرفرف العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى فوق ربوع الخرطوم ،
إلا أعاليل فى أباطيل ، أريد بها ستر جريمة الاستعمار .

وتمشى السياسة الاستعمارية بين الأخوين الشقيقين بالسعاية لتضرب
وحدة النيل ضربة قاصمة . فاذا لم يفتح أبناء النيل عيونهم على المؤامرات
التي تحاك خيوطها فى الظلام ، ومن خلف الأستار ، لتفكيك الوحدة
وفصم عرى الاتحاد ، وإذا لم يهبوا صفوفاً متراصة مضحية لاحباط
الدسائس التي تدبر فى الخفاء ، فأخشى ما أخشاه أن توقظ الحوادث
أبناء النيل إيقاظاً خشناً ، فاذا هبوا من نومهم مذعورين ، أداروا
عيونهم الزائغة ، فلم يلمحوا استقلال النيل إلا خيالا متلاشياً ، ولم
يجدوا للشعب وادى النيل وجوداً إلا فى ذمة التاريخ .

نعم إن الدسائس السكسونية تحاك بخيوط استعمارية ، إذ يشهد
المستعمرون الأرض والسماء على ما فى قلوبهم لحرية الشعوب وهم
لها من ألد الخصام ، فيقولون إنا نبغى استفتاء السودان ، ليقرر
السودان مصيره بنفسه ، وما يبغون إلا تمزيق أوصال وحدة النيل .

وكيف يكون الاستفتاء حراً رغم هيمنة البريطانيين على السودان ؟ وكيف يكون الاستفتاء مشروعاً ، وموضوعه فصل جزء من جسم الدولة ؟ !

واثن التحف ذئب الاستعمار بثوب الرياء فهو عار ، فثوب الرياء يشف عما تحته . وعبيثاً يحاول المستعمرون أن يطفئوا حرارة إيماننا بوحدة وادى النيل ، إذ يقولون على استحياء ، وهم يلبسون مسح الورع والتقوى ، إننا متشبعون بروح العطف على أمانى مصر فى السودان ، وها نحن نريد أن نزيد من قسط مصر فى إدارة السودان ، ونضاعف من نصيبها فى الشركة الانجليزية المصرية ، فلسنا نساوم على حرية إخواننا السودانيين فى سوق الرق الاستعماري ، وإنما نحن وإياهم نبغى أن يجرى النيل حراً من منبعه إلى مصبه . ولقد لدغنا من جحر الاستعمار البريطاني فى سنة ١٨٩٩ وما يليها مرات فلن نلدغ من جحر الاستعمار أبداً ، ذلك بأننا مؤمنون .

هدم دعاوى الاستعمار البريطانى

يعمل الاستعمار البريطانى جاهداً على هدم القواعد الطبيعية والتاريخية التى تقوم عليها ، وحيدة وادى النيل . ولا يتورع دعااته وأبواقه عن إنكار روابط الجنس والدين واللغة والعادات التى تربط بين النازلين على ضفاف النهر العظيم بأوثق وأقدس رباط . وبما أن الانجليزى استعمارى بالطبع ، وبما أن التهام الحقائق ، والتهام الشعوب ، مختلط بلحم الانجليز ودمهم ، فلا عجب أن يقحم غوردون نفسه على التاريخ الطبيعى ، وهو جندى قد يحسن الكر والفر ، واسكنه ليس بعالم يجيد البحث والتنقيب . بل لقد بلغ من تغلغل الروح الاستعمارية فى صفوف الشعب البريطانى ، أن علماءه لا يتعففون عن تسخير علمهم لتشويه الحقائق ، ومسخ الوقائع ، فى المسائل العلمية البحت ، ولا تتراجع ضمائرهم أمام إخضاع حقائق التاريخ لشهوة الاستعمار الجامحة ، فها هم أولاء واضعو دائرة المعارف البريطانية يعصرون قرائحهم إلى حد الاحتقان ، ويعذبون الحقائق التاريخية ليعذبوا الشعوب ، ويفرقوا بين الأخوين ، السودانى والمصرى .

لقد ضحى غوردون بنفسه ، أو ضحى به قومه على مذبح المطامع الاستعمارية ، على أنما كنا نحسب أن الرجل يضحى بالحقائق التاريخية على مذبح الشهوات الاستعمارية . ولعل جهله بالتاريخ يشفع له ، فما من شك فى أن الجندى كان والغا على التاريخ حين زعم : « أن مصر ،

أعظم أيامها ، لم تمتد حدودها بصفة دائمة ، جنوبي وادي حلفا .
بما أن الرجل لا يلبث أن يقع في تناقض صارخ ، فنحن في حل من
ن ندع غوردون يتولى الرد على غوردون ، إذ قال في أعقاب تبرعه
لسابق بالتأكيد : « إن هنالك على التحقيق على مقربة من الخرطوم ،
عض الآثار القديمة من عهد الفراعنة ، وتوجد عند مروي بعض
لأهرام » .

ونترك لبعض علماء الانجليز أمثال هارولد مكيشايل وأديسون
أن يهدما مزاعم غوردون الباطلة . فلقد أوردوا الكثير من الشواهد
لتاريخية التي تدل على الروابط القديمة التي تربط بين سكان شطرى
لواذى من عهد الفراعنة ، وأثبتا بالأدلة المادية أن فراعنة مصر قد
سيدوا الحصون في مديرية دنقلة من . أبعد أزمنة التاريخ . ففى عام
١٨٧٩ قبل الميلاد أوغل سيزوستريس الثالث فى السودان حيث أنشأ
لقلاع ، وأقام إدارة ثابتة فى البلاد .

وتلك آثار قدماء المصريين فى السودان تدل عليهم . فأولئك هم
نحتمس الأول والثانى والثالث ، قد أقاموا المعابد ، وشيدوا الهياكل .
وذلك هو سبتي الأول ، ما برحت أعمدة ثلاثة من بقايا معبد قديم ،
تشهد العالم على رسالة الحضارة التى حملها المصريون إلى ربوع السودان
من أقدم عصور التاريخ .

وتقول دائرة المعارف البريطانية إن بدء تغلغل النفوذ المصرى فى

السودان كان في عهد الدولة القديمة . ففي عهد الأسرة الثانية عشرة أنشئت المزارع ، وبُنيت الحصون ، إلى حدود بطن الحجر . وإبان حكم الأسرة الثانية عشرة تم إخضاع البلاد سياسياً . وما لبث كهنة آمن أن نفرزوا خفافاً وثقالاً من طيبة فأنشأوا عاصمة مصرية في ناباتا . على أن دائرة المعارف البريطانية لا تلبث أن تعاودها النزعة الاستعمارية وتحرك فيها غريزة التفريق ، فتنادى ، رغبة منها في فصم وحدة النيل ، بأن الشعبين السوداني والمصري ، يختلفان من كل الوجوه ، وليس أدل على ذلك ، كما تزعم الدائرة المرنّة ، من التباين في الاقبال على العمل بين المصريين والسودانيين ، فالمصريون من أعظم الأجناس إقبالا على العمل ، في حين أن القبائل السودانية ، سواء أكانوا من العرب أم من الزنوج ، يحنحون بصفة عامة إلى التراخي والكسل .

وتترقى دائرة المعارف البريطانية في المغالطات التاريخية ، فتزعم أن السودان مؤلف من أجناس مختلفة ، وأديان متباينة . وإذن فهو لا يمت إلى مصر بسبب . فبينما شماله يتحدر من أصل عربي ، إذا بجنوبه يتكون من الزنوج . وبينما يعتنق الأولون الاسلام ، إذا بالآخرين من الوثنيين .

ولكن الانصاف التاريخي يهدم دعوى دائرة المعارف البريطانية من أساسها إذ ينادى بامتزاج شعب النيل . فمعظم السودانيين من العرب ، وكذلك معظم المصريين . وغالبية مصر تدين بالاسلام ،

أخوانهم السودانيون ينطقون بلغة القرآن ، والأخوان يتكلمان
للغة العربية . والعادات والتقاليد والذكريات التاريخية بين سكان
وادي متشابهة إلى حد أن السوداني حين يكون في مصر ، والمصري
حين يكون في السودان ، لا يشعر أنه غريب عن وطنه .

ويمينا غير حاث فيها ، ولا متراجعا عنها ، أن المصري أقرب ألف
رة إلى أخيه السوداني ، من الانجائزي إلى الاسكتلندي أو الأيرلندي ،
أن مملكة وادي النيل المتحدة أدنى إلى الحق والعدل ، وأقرب إلى
نواميس الطبيعة ، من المملكة البريطانية المتحدة .

في ٢٢ يناير من عام ١٨٨٤ كتب غوردون إلى لورد غرانفيل
قول : « إن السودان ملكية لا فائدة منها ، كذلك كان ، وكذلك
موف يظل إلى الأبد ، فياليت شعري ، متى انقلبت الأوضاع ،
انعكست الآيات ، فأصبح السودان ملكا تشرئب إليه أطماع الاستعمار
لبريطاني ؟ إن الوضع قد تغير ، والنظرة قد تبدلت بعد فتحه ، وبعد
وضع قواعد الإمبراطورية الأفريقية ، وخاصة بعد إنشاء مشروع
لجزيرة ، وزراعة القطن لتغذية معامل لانكشاير .

لم يكن محمد علي باشا يلهو بالغزو والفتح حين تحركت قوات
مصر صوب السودان في عام ١٨١٩ ، وإنما كان يبتغي الوصول إلى
منابع النيل ، وضمان مصدر حياة مصر . وكأنما كان ينظر بعين الغيب .
نفي التقرير الصادر بتاريخ ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٤ قال المستشار المالي

الانجليزى لوزارة المالية : « إن الأرض التى يروها النيل من جبال الحبشة والبحيرات الكبرى إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، مهما كان الاسم الذى يطلق عليها ، هى كل لا يقبل التجزئة ، ونظراً لتقدم فن الهندسة الذى بلغ الذروة ، فإن الدولة التى تبسط سلطانها على منطقة أعالي النيل ، تملك السيطرة على الحياة فى مصر ، وعلى ذلك فالسودان ضرورى لمصر ، بل هو ألزم لها من الاسكندرية » .

وفى ١٦ يناير من عام ١٨٥٧ بلغ حلیم بن محمد على الخرطوم فنظم البلاد ، ورتب البريد بين مصر والسودان ، وخفف أعباء الضرائب عن كاهل الأهلى ، وحرّم على الجند جبايتها . وفى الخرطوم أنشأ مجلساً شورياً من أعيان البلاد ، وأنشأ الخط الحديدى بين حلفا والخرطوم ، وأبطل الرق . وإذن فالمصريون هم الذين أنشأوا الطرق الحديدية فى السودان ، وفتحوا السدود ، وبنوا المدارس ، وأدخلوا زراعة القطن ، وأبطلوا تجارة الرقيق ، وأنشأوا طرق المواصلات ، وعلى الجملة فهم الذين نشروا ألوية الحضارة فى ربوع السودان .

وفى ١٧ يناير من عام ١٨٦٣ تولى الحكم الخديو اسماعيل ، فامتد ملك مصر إلى ما وراء خط الاستواء ، وانضوت زنجبار وأوغندا تحت لواء مصر ، ومد الخط الحديدى بين حلفا وسواكن . ومد اسماعيل رواق مصر على سواحل البحر الأحمر ، واكتشف معادن البترول والرصاص والحديد وفتح دارفور وبات الأمن والرخاء فى ربوع السودان مضرب الأمثال فى العالم بأسره .

وشهد عام ١٨٨١ موقفاً تاريخياً خالداً ، يملأ العين نوراً ، والقلب ناراً ، إذ جلس عشرون نائباً سودانياً جنباً إلى جنب مع اخوانهم المصريين في مجلس شورى النواب ، وصاغت قلوب المصريين قلوب اخوانهم السودانيين ، وعانقت أرواح السودانيين أرواح اخوانهم المصريين ، وامتزجت مصر بالسودان ، واندمج السودان في مصر ، ولم يكن السودانى يمثل السودان ، ولم يكن المصرى يمثل مصر ، وإنما كان كلا الأخوين يمثل وادى النيل .

ويريد المستعمرون أن يهدموا الوحدة ، ويطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المستعمرون .

الروابط الاقتصادية بين شمال الوادى وجنوبه

إلى جانب الروابط الطبيعية والتاريخية والسياسية التى تربط بين شمال وادى النيل وجنوبه ، توجد الروابط الاقتصادية الوثيقة ، فليس من الغلو فى شىء أن يقال إن السودان جزء من مصر لا يتجزأ ، وليس من الاسراف فى كثير أو قليل أن يقال إن مصر من الوجهة الاقتصادية متممة للسودان ، والسودان متمم لمصر ، فلا غنى لنصفى الوادى أحدهما عن الآخر .

وفى العصر الحديث أصبح للمسائل الاقتصادية قيمتها وخطرها . وإذا كان بعض المفكرين يرى لخير الانسانية ، وفى سبيل القضاء على الحروب ، أن يكون العالم بأسره وحدة اقتصادية مع انعدام الروابط بين الشعوب من كل النواحي ، فأولى أن يكون بين السودان ومصر وحدة اقتصادية مدعمة بالوحدة الطبيعية والسياسية معاً .

فأما أن هناك وحدة سياسية بين شطرى الوادى فهذا ما لا يرقى الشك إليه ، وما لاسبيل إلى الجدل فيه ، فوجود قوات أجنبية معادية مسيطرة على أعالي النيل يهدد استقلال مصر تهديداً خطيراً ، إن لم يقوض دعائم هذا الاستقلال تقويضاً تاماً . كما أن قيام جنود أجنبية فوق أرض مصر يهدم استقلال النيل من أساسه .

إن السياسة البريطانية تريد تمزيق أوصال وحدة النيل ، ومحو كل

أثر لمصر في السودان ، والاستثمار به من دون المصريين ، ولكي تسدل الستار على أطماعها الاستعمارية تلوح للسودانيين بالاستقلال ، في حين أنها تريد أن تتخذ منه مستعمرة بريطانية لا ينافسها فيها منازع . كذلك صنعت في الماضي ، وكذلك تحكم النديير اليوم .

وتولدت الرغبة الجارحة في نفوس المستعمرين حين قال غلادستون في عام ١٨٧٧ ، أن الاستيلاء على مصر يكون توطئة للاستيلاء على السودان ، واتخاذ السودان نقطة ارتكاز للوثبة إلى خط الاستواء ، وفي كل أولئك بسط اليد لمصاحفة جنوب أفريقيا ، والفراغ من بناء الامبراطورية الأفريقية .

وتدرجت الفكرة حين اعتزم سيسيل رودز مد خط حديدي من مدينة الرأس إلى مدينة القاهرة .

وكان الشروع في تنفيذ الجريمة حين حملوا مصر على إخلاء السودان كرهاً في عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٥ ، ثم استعادته بدماء مصرية ، وأموال مصرية ، ثم فرضوا شركة الذئب والحمل في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

ولقد رفع الستار عن جناية فصل السودان عن مصر . فلقد كان هدلستون حاكم السودان العام يمني السودانيين باطلا بالاستقلال بعد عشرين سنة لا تنقص ولا تزيد ، كأن استقلال الشعوب مرحلة دراسية لا بد من قطعها ، لا حقاً طبعياً لها ، ولا مندوحة عن قطع

المرحلة في عشر وعشر سنين عدداً ! وكأن السودان في سنة أولى
تحضيرى استقلال ! وكأن السودانين من الغفلة بحيث تجوز عليهم
أباطيل السياسة الانجائزية ، وكأن المصريين والسودانيين من البلاهة
السياسية المطبقة بحيث ينسون أن جيش الشؤم والعدوان نزل بمصر
عام ١٨٨٢ ، وكان الاحتلال البريطانى مؤقتاً ، أقبل لمجرد توطيد العرش
الخدوى وأنه لا يلبث حتى ينسحب . وها هو لا يزال كابوساً جاثماً
على صدر مصر بعد أكثر من أربعة وستين عاماً ، وأكثر من أربعة
وستين وعداً سكسونياً بالجلاء .

إن الانجليز النازيين يعتقدون أن الديمقراطية ليست مادة للتصدير
وخاصة لما يسمونه الأجناس الملونة المتأخرة ، وأنهم مبعوثون من
العناية الإلهية برسالة الحضارة ، ونشر ألويتها بين تلك الأجناس
يستوى في تلك العقيدة الباطلة العمال والأحرار والمحافظون .

وما كان هدلستون الحساکم العام الانجائزى للسودان يكتفم أنه في
التصريحات التى يدلى بها تمهيداً لفصل السودان عن مصر ينطق باسان
اتلى كبير العمال ، ورأس الوزارة العمالية . وما كانت الدعاية التى بثها ،
والأفاعيل التى أتاها ، والدمى التى حركها ، والمظاهرات التى دبرها ،
لبتر السودان عن جسم مصر إلا برضا وتعزید وزارة العمال .

ولم يتورع اتلى عن أن يجاهر بأنه هو الذى وضع تلك التصريحات
الانفصالية الاجرامية فى فم معول الاستعمار هدلستون .

وما كان يفتن فيما يملأ فمه به إلا مبشراً بسياسة العمال التي تتشابه
وسياسة المحافظين كما تتشابه نقطتا ماء ، أو فصيلتا دماء !

وفي عام ١٩٢٤ كان اللورد بارمور يمثل وزارة العمال في مجلس
اللوردات فضرب على نفس النغمة التي تؤذى سمعنا اليوم إذ قال :
« أريد أن أقول ، في عبارة جلية صريحة ، أن حكومة جلالة الملك
لا تنوى التخلي عن السودان بحال من الأحوال ، وهي تقر بالتعهدات
التي أخذتها على عاتقها حيال السودانيين ، تلك التعهدات التي لا يمكن
التنصل منها بغير ضياع النفوذ والهيبة في تلك البقاع الشرقية » .

فما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أشبه بارمور ويفن ، بايدن وتشرشل !
فأما ما يزعمه المستعمرون من التدرج بالسودان في سبيل الحكم
الذاتي فقد علمنا تاريخ الاستعمار البريطاني أنه لا يكون إلا تدرجاً
بالشعوب المغلوبة إلى هاوية الفقر والمرض والجهل .

وما شأن الانجليز في إعطاء ضمانات لمصر عن مياه النيل ؟ وكيف
يكون الضامن هو منبع الخطر ، ومصدر الشر ؟ ومن يضمن لنا
الانجليز من الانجليز أنفسهم ، وسوابقهم ، وسابقتهم في ٢٢ نوفمبر
سنة ١٩٢٢ إذ هددوا مصر بقطع مياه النيل عنها ، لا تدعو لاطمئنان
إنسان له مسكة من العقل والذاكرة ؟

ليس مشروع الجزيرة إلا مشروعاً استعماريّاً . وما الهبة الانجليزية
بمليوني جنيه للسودان ، إلا الطعم الذي يراد به اصطياذ ثقة السودانيين .

والإفالسودان بحاجة إلى مصر ، ومصر بحاجة إلى السودان ، تشهد بذلك النفقات التى أنفقتها مصر بسخاء لمد السكك الحديدية ، وإنشاء المشروعات العمرانية ، وسد العجز فى الميزانية السودانية .

لا يزال السودان بلداً بكرأ لم تستغل موارده بعد . ولقد هوت به السياسة الاستعمارية إلى حضيض الانحطاط أولم تنهض به فى سبيل المدنية والعمران . ولولا جهود أبنائه لما ازدهرت تجارته ، ولا نمت حاصلاته رغم خصب الأرض وسعتها .

وما من شك فى أن مصر هى المجال الحيوى لتصريف تجارة السودان . وما ميناء بور سودان الذى أنشئ بأموال مصرية إلا الاحتيال الجسم من جانب السياسة البريطانية لقطع المواصلات التجارية بين السودان ومصر .

وفى المستقبل سوف تتدفق البضائع السودانية على مصر . وهى اليوم فى ازدياد . ذلك بأن مصر هى الطريق الأقرب ، وهى التى تستوعب أكبر قسط من حاصلات السودان .

ولقد ضاقت مصر بسكانها أوكدات ، ولا سبيل إلى تخفيف الضغط إلا بالهجرة إلى السودان . ولا عبرة بالسوم التى ينفثها فى المجالس فقراء النفوس ، فقراء الايمان الوطنى ، إذ يقولون ، تزهداً فى وحدة وادى النيل ، واصطناعاً لعدم جدواها أن المصرى لا يميل بطبيعته إلى الهجرة ، وإذا اقترضنا أنه سوف يكون بحاجة إلى الهجرة

للسودان فان ذلك لن يكون إلا بعد خمسين سنة ، وعليه أن يستصلح
الأراضي البور التي لديه والتي تبلغ قرابة أربعة مليون فدان قبل أن
يفكر في الاشتراك مع أخيه السوداني في استغلال أرضه ، ثم عليه أن
يفكر في استغلال موارد بلاده قبل أن يفكر في استغلال موارد
السودان ، والذي يهدم هذا الدليل الباطل من أساسه هو أن السياسي
الجدير بهذا اللقب يجب أن يمد بصره إلى المستقبل ، وينظر إلى
خمسين سنة قادمة .

إن على السودانيين والمصريين أن ينظموا ايّتهم بالاشتراك والتعاون
فيما بينهم ، ويضبطوا الروابط الاقتصادية بينهم دون الاحتكام إلى
الاستعمار البريطاني وإلا أكل ذئب الاستعمار مصر والسودان جميعاً .
وإن كل محاولة لهدم وحدة وادي النيل ايرفضها أبناؤه في عزة
الأبي ، وكرامة الوطني .

الحكم الثنائى فى المسرحية الاستعمارية

فى المسرحية الاستعمارية التى مثلت على مسرح مجلس العموم البريطانى ، أثيرت مسألة شركة الذئب والحمل ، فأزيج الستار عن المؤامرة المدبرة من الاستعمار البريطانى ضد وحدة وادى النيل ، فقد تساءل تشرشل : « هل لدى رئيس الوزراء تصريح يدلى به عن السودان ؟ » .

فأجابه اتلى يقول : « إن هذا الموضوع لا شأن للسودان فيه فالسودان موضوع آخر هو موضوع الحكم الثنائى » .

فمزق هذا التصريح القناع عن تبئيت الجريمة ضد وحدة وادى النيل . ولم يبق شك فى أن إرجاء حل المسألة السودانية ، أو وضعها على الرف ، أو وضعها فى الثلاثجة ، أو إجراء عملية البتر فى الحال ، كل أولئك يرمى إلى تمزيق أوصال الوحدة .

إن التاريخ والواقع والمنطق ، كل أولئك ينادى بأن الاتفاق الثنائى المزعوم الموهوم الذى تمخضت عنه اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الباطلة ليس إلا شركة وهمية لانبجاستها فيها كل الغنى ، وعلى مصر كل الغرم .

فبعد إعادة فتح السودان بالدماء والأموال المصرية لم تتورع بريطانيا النازية عن ضمه إلى أملاك التاج لأن ذلك الضم يتجافى مع مبادئ الحق والعدل ، ويتنافى مع نوااميس الطبيعة . ولم يتعفف

الاستعمار البريطاني عن التهام السودان لقمة سائغة ، وأخذ منابع النيل غنيمة باردة ، لأن ذلك يتنافى مع قواعد القانون والأوضاع الدولية ، بل لأن إنجلترا وازنت بين الربح والخسارة في الضم الصريح ، فلما رجحت كفة الخسارة على كفة الكسب ، آثرت العدول عن الضم العلني ، وابتكرت عبقريتها الاستعمارية شركة الذئب والحمل في ثياب الحكم الثنائي .

وهل تاريخ الاستعمار البريطاني إلا تاريخ الطفيليات ؟ وماذا يضير إنجلترا أن تزرع مصر وهي تحصد ، وتنفق مصر من دمها ومالها وهي تجني ثمرات الاستغلال ، مادام الاستعمار متجرداً من كل ضمير ؟
والآن ندع الكلمة للورد كرومر إذ قال في تقريره لعام ١٨٩٩ :
« السودان هوة تبتلع الملايين كما يذوب الثلج أمام حرارة الشمس فهو سبب وهن المالية المصرية وضعفها » .

وفي الفترة بين ١٨٨٩ و ١٩١٢ كانت الخزانة المصرية هي التي تتحمل سد العجز في ميزانية السودان سنوياً . ولقد بلغ مجموع تلك المبالغ ٢١٥ ر ٣٥٣ ر ٥ جنيهاً إنجليزياً .

وطوال الحقبة التي انقضت بين ١٨٩٩ و ١٩٢٤ ، أو بعبارة أخرى بين ميلاد الحكم الثنائي ، وطرده القوات المصرية من السودان عنوة واقتداراً ، كانت مصر تساهم في النفقات العسكرية المشتركة بنصيب لا يقل عن مليون جنيه في العام .

يضاف إلى كل تلك الأعباء أن الحكومة المصرية قدمت النفقات عن سعة للقيام بالمشروعات العمرانية كمد الطرق الحديدية ، وإنشاء ثغر بور سودان . ولقد بلغت تلك النفقات حوالى ٤٣٨٧٠٠٠ ر. جنيه انجلىزى .

وماذا جنت مصر من الثمرات فى مقابل تلك الأعباء الباهظة ؟
لاشئ اللهم إلا الألفاظ الجوفاء ، والمظاهر الكاذبة . ففى ٢٥ يونيه من عام ١٩٢٤ وقف اللورد كرزون خطيباً فى مجلس اللوردات فملأ فيه بالعبارات التالية : « لولا النفقات المالية التى تقوم بها مصر ، لتردى السودان فى هاوية الافلاس . ولو أنكم ذهبتىم إلى حد القول بأن مصر لاصلة لها بالسودان إلا صلة الماء ، وأنكم أقصيتىم مصر عن أن يكون لها أى صوت أو نصيب فى إدارته على الإطلاق ، فإن السودان يصبح فى حالة عجز تام ، فى الظروف القائمة ، عن النهوض بأعبائه » .
وعلى ضوء منطق اللورد كرزون نستطيع الحكم بأن الاستعمار البريطانى يحرص كل الحرص على استبقاء خيال الحكم الثنائى ، إذ يبنى تسخير مصر فى احتمال أثقال النفقات ، دون أن يكون لها شئ من الثمرات ، ولكى تكون لانجلىترا حصة الأسد ، وتخرج مصر من الشركة الوهمية بصفقة المغبون .

وعلى الرغم من هذا الحكم الثنائى ، لم يتخرج أحد طرفى الشركة من أن مجرد الشريك المرفوع من كل مظاهر الاشتراك ، فيطرد قواته ،

ويهدد مصدر حياته . فلقد انتزعت القوة الغشوم الجنود المصريين من ربوع السودان قوة واقتداراً ، ثم أمعنت في الجناية والتجنى ، فأندر اللورد اللبى عميد الدولة البريطانية بمصر بأن يقطع عنها مياه النيل برفع القيود عن المساحة التى تزرع قطناً فى الجزيرة من ٣٠٠٠٠٠ فدان إلى مساحة غير محدودة . وإباحة زراعة القطن إلى ما لا نهاية ، مخالفاً بذلك أبسط قواعد الحق والعدل .

ومن المظاهر الكاذبة ما تنص عليه اتفاقية ١٨٩٩ فى مادتها الثانية : « يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معاً فى البحر والبر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها سوى العلم المصرى » .

فقد تبرع الاستعمار البريطانى بذلك المظهر الأجوف الخفاق ليقصى النفوذ الأجنبى عن السودان مخافة تحويل مجرى النيل وخشية أن يرزح السودان تحت أعباء الامتيازات الأجنبية .

وتجود السياسة الاستعمارية على المصريين بالقشور ، وتحفظ هى باللباب ، فتقول المادة الثالثة من شركة الذئب والحمى : « تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب بحاكم عام السودان ، ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية » .

وها هو هدلستون الحاكم العام للسودان خلق الحركة الانفصالية خلقاً ، ثم غذاها ونماها ، ثم شجعها وقوى شوكتها ، ثم كان المعول الهدام لوحدة وادى النيل جهرة وعلانية وعلى الرغم من كل أولئك فلم يتخل عن مركزه إلا لأنه ينوء تحت أعباء السنين ! وبعد أن أتم عملية الهدم الموكولة اليه من الاستعمار البريطانى .

وإذا كان الانجائز يقولون إن لكل سياسة جديدة رجالاً جديداً ، وإذا كان هدلستون العسكرى قد أتم المهمة المنوطة به ، فلا بأس أن يجيشوا بهاو السياسى ليعمل على صبغ عملية فصل السودان عن مصر بالصبغة الشرعية ، وللقوة واستعمال العنف مرحلة ، وللسياسة والتغريب والتضليل مرحلة أخرى .

ثم تفقد مصر حتى القشور ، وتخرج من الاتفاق صفر الدين ، فيصبح حاكم السودان حاكماً بأمره ، وتتركز فى يده كل السلطات ، ويستأثر الانجائز بالمناصب العليا ، ويلقون للسودانيين بالوظائف الدنيا ، ويخرج المصريون منها وكفهم صفر ، ولا يسمح لهم إلا بالتقاط الفتات المتساقط من موائد الاستعمار ، وتتجمع كل السلطات فى مجلس الحاكم العام ، ثم يخلق المجلس الاستشارى خلقاً ليكون أداة للفصل بين شمال السودان وجنوبه ، بعد أن فصل بين شمال الوادى وجنوبه .

وتحت الحكم الثنائى ، وبعد اتفاق ١٨٩٩ يرزح السودان تحت

أثقال حكم استبدادى مطلق لا يقل استبداداً عن حكم روسيا في العهد
القيصري، وحكم تركيا في العهد الحميدى كما يقول توينبى الانجليزى
المنصف.

وأما بعد، فأى اتهام وجهته الدعاية البريطانية، إبان الحرب
العالمية الثانية، إلى المانيا النازية، إن صدقاً وإن كذباً، لم تتورط فيه
بريطانيا، بل لم تغرق فيه إلى أذنيها، فى تاريخها الاستعمارى الدامى
الصفحات، الحافل بالجرائم والآثام، الملىء بالتغريب والتضليل،
الطافح بخلف الوعد، ونكث العهود، حتى استحقت لقب «بريطانيا
النازية».

لقد كان المؤرخ الالماني الكبير تريتشكه يسمى بريطانيا «سارقة
الأمم»، ثم يعدد سرقاتها لجبل طارق ومالطة وقبرص ومصر وعدن
والهند. وإذا كان جزاء السارق فى الشريعة الاسلامية قطع اليد، فما
أحرى الاستعمار البريطانى بأن يقضى عليه القضاء الأخير فهو مثار
الحروب العالمية، وهو علة انحطاط الشعوب، ومجلبة الفقر والمرض
والجهل للأمم التى تنوء تحت عسفه وجبروته.

إن مكافئة الاستعمار مشروعة، وهى فرض عين، لا فرض
كفاية، على كل وطنى ووطنية، وإذا كان أبناء النيل ينشدون الوحدة
والجلاء، ولا يرضون عنهما بديلاً، فالجهاد مقدس فى سبيل النيل.
ومن خطب الحرية لم يغلقها مهر.

فهرس

صفحة

١	البرنامج الوطنى — تحرير النيل
١٢	وحشية الاستعمار البريطانى
٢١	بريطانيا النازية
٣٠	السياسة البريطانية بين حربين
٤٣	السياسة الاستعمارية فى ثوبها الحقيقى
٥٢	تصفية الامبراطورية البريطانية
٦٤	وحدة وادى النيل حقيقة طبيعية لا يمارى فيها الا المستعمرون
٧٠	الاستعمار عدو الوحدة
٧٦	الانجليز المستعمرون يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم
٨٣	لا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل
٨٩	هدم دعاوى الاستعمار البريطانى
٩٥	الروابط الاقتصادية بين شمال الوادى وجنوبه
١٠١	الحكم الثانى فى المسرحية الاستعمارية

المؤلف

السلام الاجتماعي

نزعة صادقة نحو الإصلاح ،
دستور للقضاء على الفقر والجهل والمرض ،
آراء حرة لعلاج مشاكلنا الاجتماعية

الناشر

دار الفكر العربي

شارع القصر العيني عمارة ماراسيني بالقاهرة

الثنى ٣٠